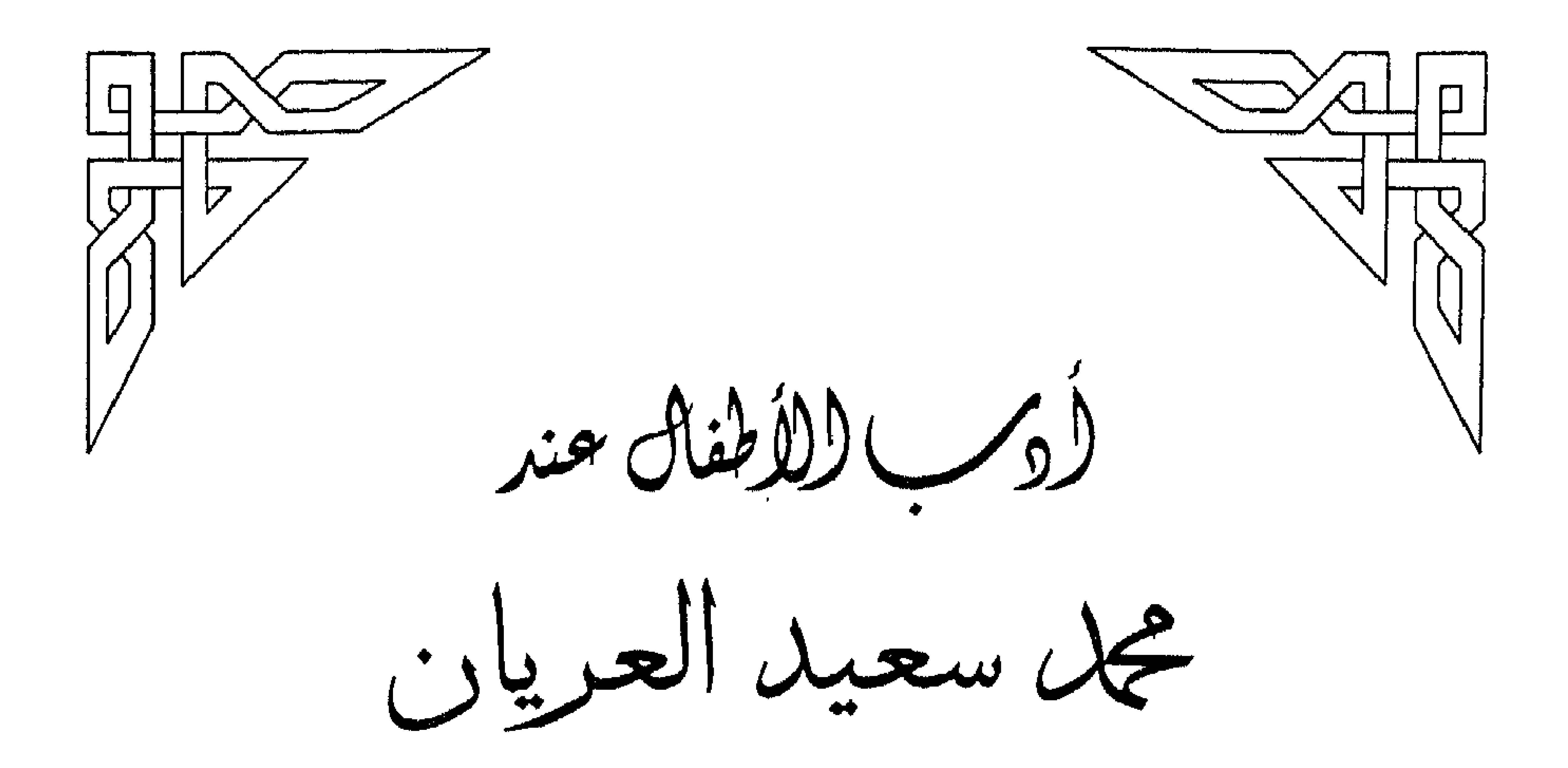

أدب الأطفال
عند
محمد سعيد العريان
تأليف:
د. زينب محمد صبري بيره جكلي
كلية الآداب
جامعة الشارقة
البلد الأمين



أدب الأطفال عند
محمد سعيد العريان

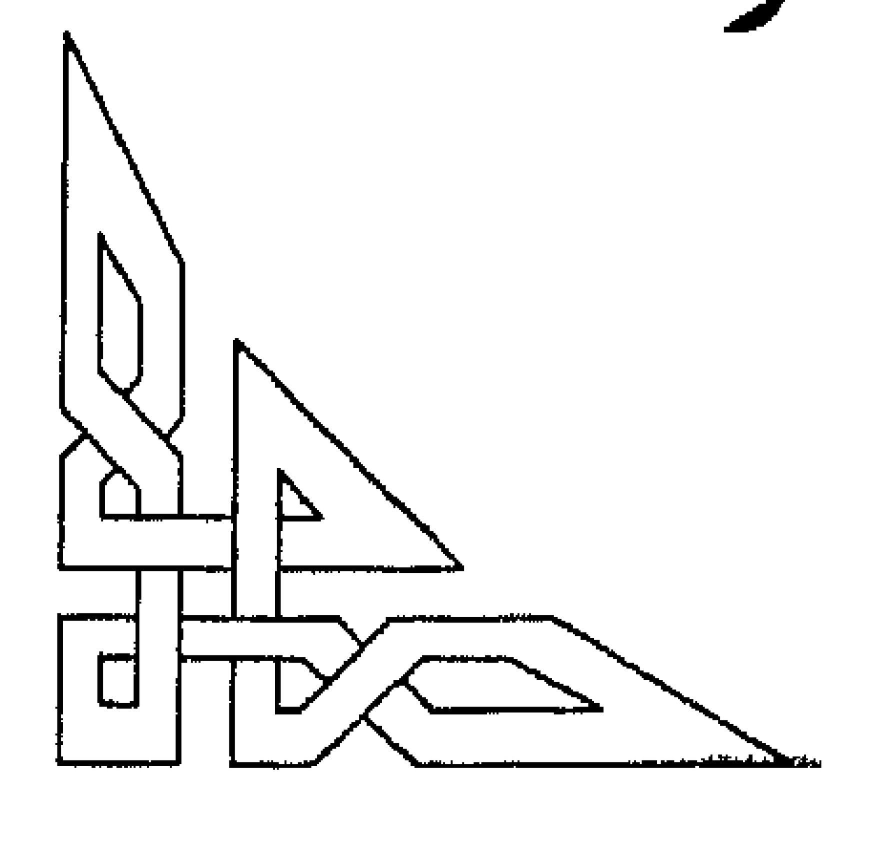
١٣٢٣ - ١٣٨٤ هـ

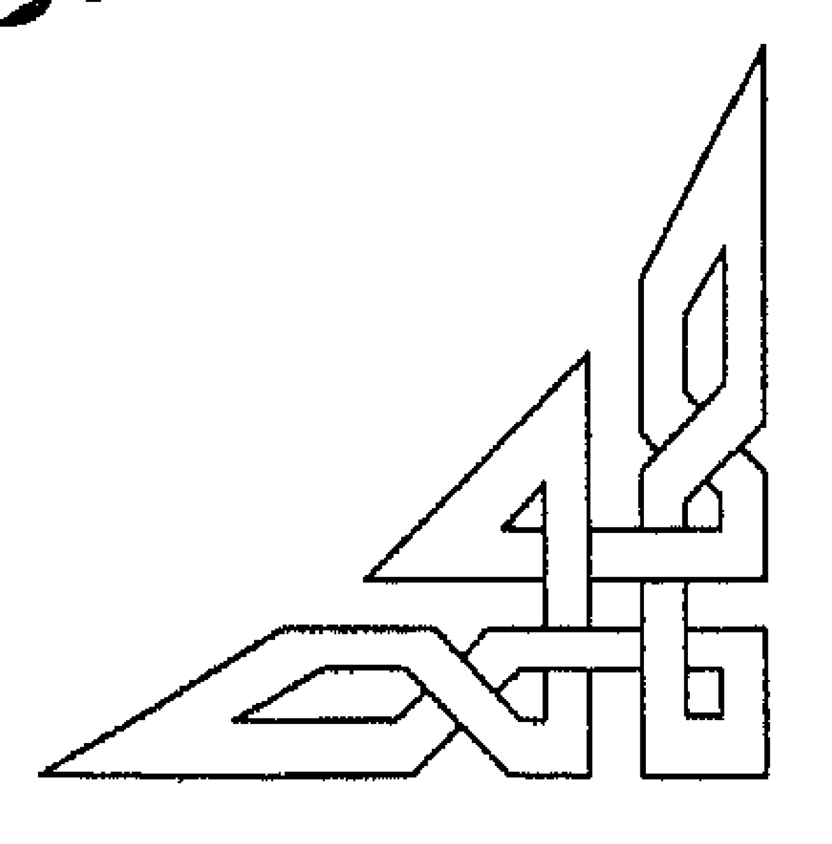
١٩٠٥ - ١٩٦٤ م

تأليف

زينب بيره جكلي

مدرسة الأدب في جامعة الشارقة





الطبعـة الأولـى

١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م

مكتبة دار العلوم

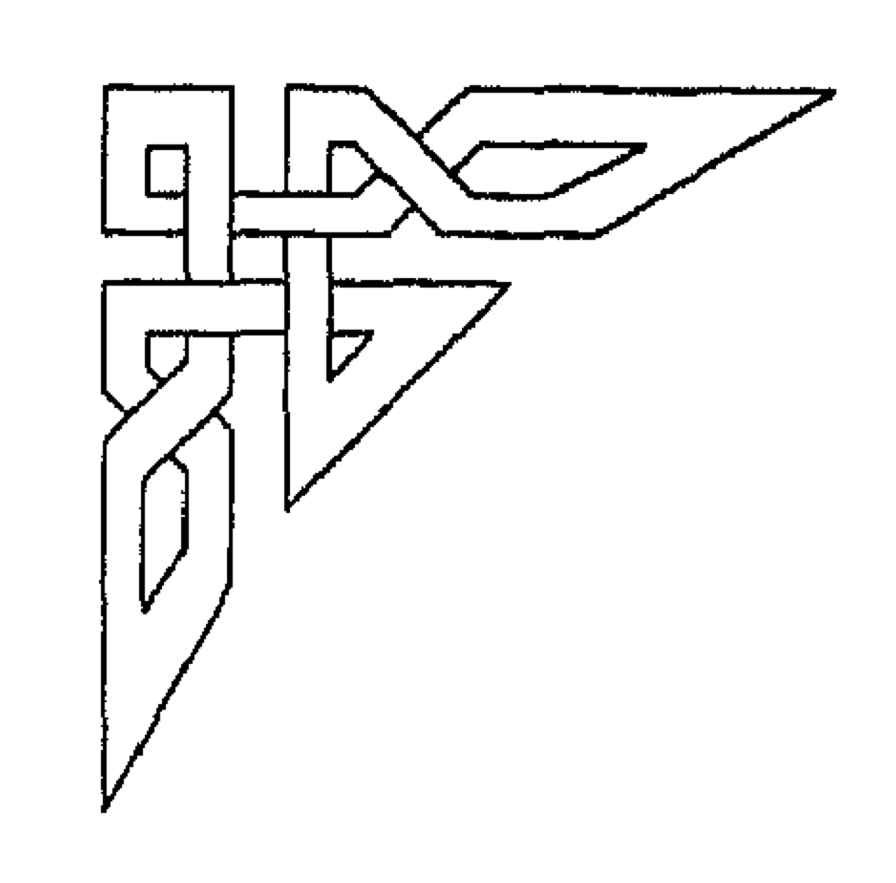
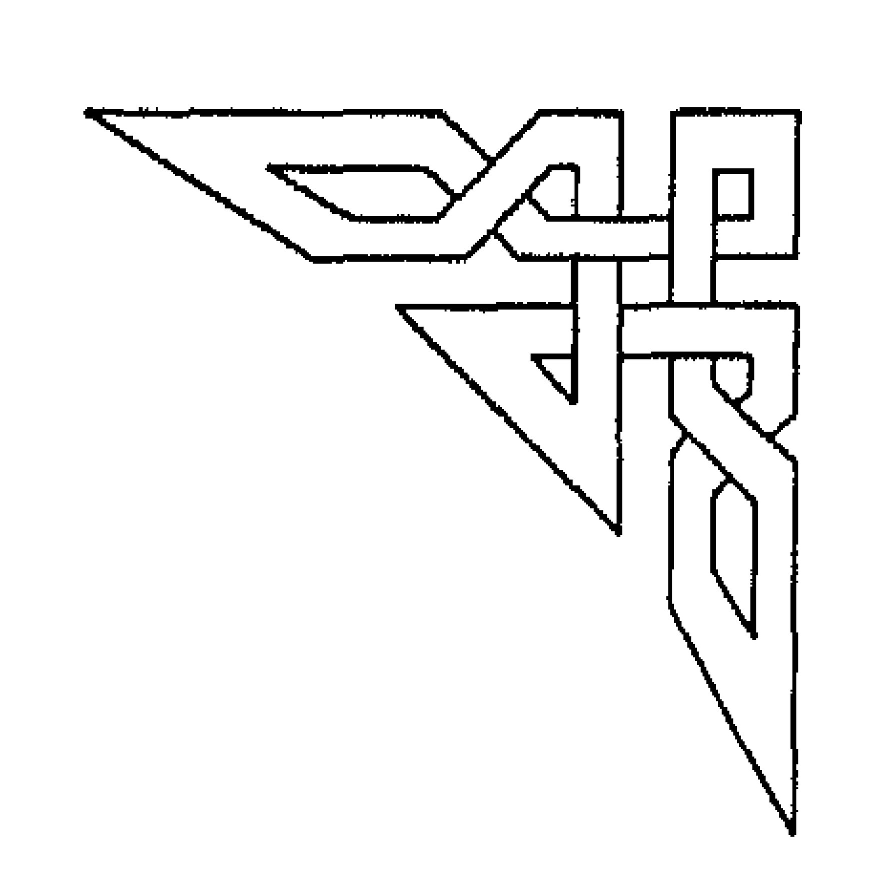
الشارقـــة

هاتف: ٥٣٦٢٣٣٣

مكتبة البلد الأمين

الأزهـر ـ القاهـرة

هاتف: ٥١٢٤٨٨٢

إهداء

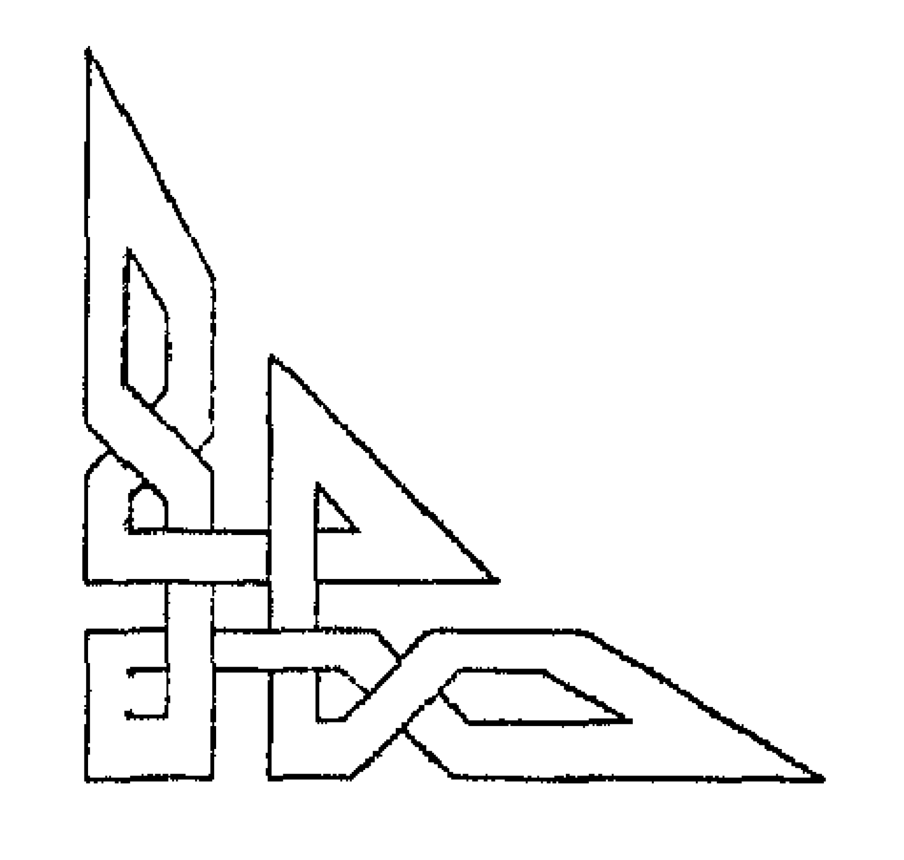
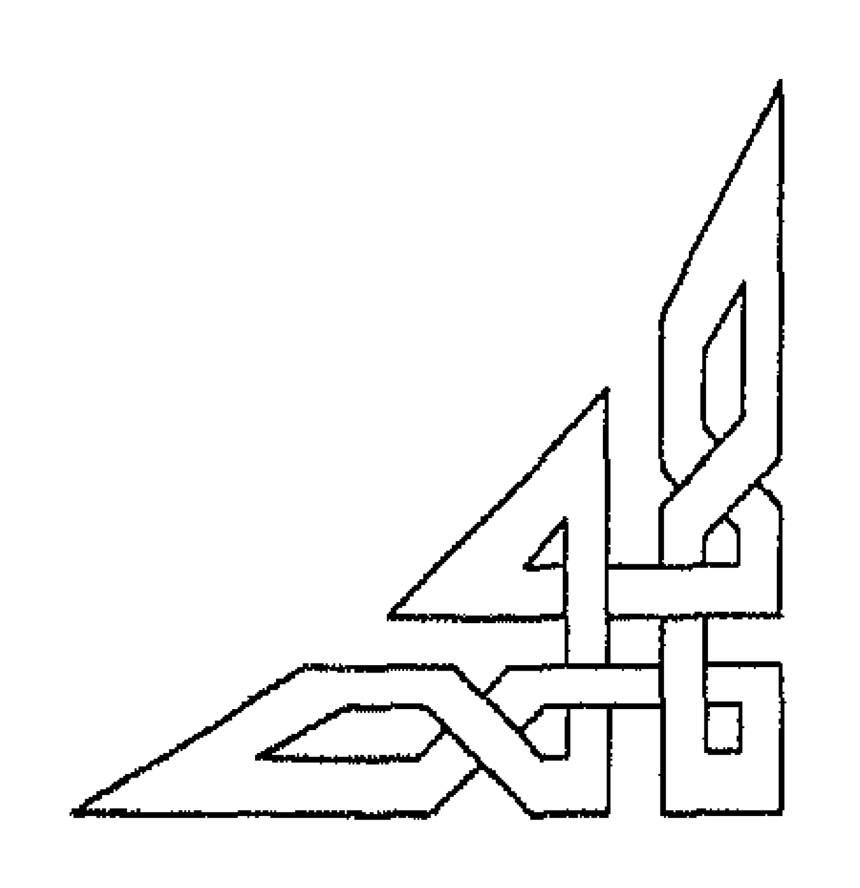
إلى مهج القلب أولادي الأحبة

إلى البراعم الثلاثة الذين تغاضيت عنهم أمدًا ، حتى استوى هذا الكتاب

إلى عبد السلام ، ومصطفى ، وصفاء

أهدي هذا الكتاب ليكون لهم نبراسًا يهديهم إلى العلم والمعرفة ، والبحث الطويل

الأم المؤلفة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وحبيب الأطفال ومحبهم سيدنا محمد ﷺ الذي علّمنا رعاية الصغار ، وكان قدوة لنا في معاملتهم ، وحسن تربيتهم ، وعلى آله وصحبه ، والتابعين وتابعيهم بإحسانٍ إلى يوم الدين .

أما بعد .

فإن «الطفل أبو الرجل» كما يقول محمد سعيد العريان . ونحن - الأدباء والمربين - مسؤولون عن تنشئته التنشئة السوية حتى يكون عضوًا نافعًا لمجتمعه وأمته . وقد أرشدنا الرسول الكريم ﷺ إلى ذلك بقوله : «أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم» .

ومحمد سعيد العريان أديب مصري ، عني بهذا اللون الأدبي ، إيمانًا منه بأهمية الأديب في توجيه الأطفال الناشئة ، وتقويم سلوكهم ، وقد ألف في ذلك آدابًا كثيرة ، آثرت أن أدرسها لأوضح نشاطه العملي والتأليفي في هذا الجانب ، ضمن رسالتي للماجستير التي كانت في عام ١٩٧٧ م وهي بعنوان «محمد سعيد العريان حياته وأدبه» ، ثم قسمت الرسالة إلى ثلاثة كتب هي :

١- محمد سعيد العريان حياته وفن المقالة والسيرة عنده .

٢- فن القصة عند محمد سعيد العريان .

٣- أدب الأطفال عند محمد سعيد العريان .

وطبع كل جزء مستقلاً ليتناوله من أراده تسهيلاً عليه .

وقد عانيت في جمع المادة كثيرًا ، فهي متناثرة في بطون الصحف

والمجلات المصرية ، وهي كثيرة كثيرة ومتناثرة في مكتبات جمهورية مصر العربية، فكان عليّ أن أتنقل هنا وهناك بين المكتبات ألتقط من هنا قصة ومن هناك فكرة حتى اكتملت المادة .

كما اطلعت على الكتب التربوية التي توضح لي نفسية الأطفال ومتطلباتهم والآداب المفضلة لديهم .

وقسمت الدراسة إلى مقدمة ، ومدخل إلى أدب الأطفال ، وفصلين وخاتمة .

وبينت في المدخل عناية العريان بهذا اللون من الفنون الأدبية ، متأثرًا في ذلك بكامل الكيلاني رائد أدب الأطفال في مصر ، واهتمامه بجميع مراحل الطفولة ومتطلباتها ، وبنفسية الأطفال ، وبيئاتهم المتعددة في مصر ، بل في أرجاء الوطن العربي كله ، ولا سيما في مجلة سندباد ، وقد راعى نوع الوسيط الذي تعرض فيه المادة العلمية كتابًا كان أم مجلة .

وانتقلت من هذا المدخل إلى الفصل الأول لأدرس أدبه الذي انفرد بتأليفه وهو رحلات سندباد ، وقصة العرب لاخريستوف كولمبس ، ومغامرات أرنباد ؛ وكان بطل الرحلات «سندباد» عصريًا من نسل سندباد ألف ليلة وليلة ، وقد صَوّرت المجتمع الشرقي إلى جانب مجتمعات أخرى ، وحوت كثيرًا من المعلومات والخبرات المتعددة ، وكتبت بأسلوب جذاب ، سهل مشوق للقراء ، ملائم لمستواهم ، ومن الراجح أن أديبنا تأثر بقصص ألف ليلة وليلة ، وبكتب الرحالة والجغرافيين العرب .

أما قصة «العرب لاخريستوف كولمبس» فقد حكت محاولة العرب اقتحام بحر الظلمات «المحيط الأطلسي» لمعرفة ما وراءه من يابسة ، لينشروا على ربوعها اسم الله عز وجل ، وقد أخفقت هذه المحاولات وإن كانت الآثار تشير إلى وصولهم ، وكُتب لخريستوف كولمبس أن يتحقق الأمر على يديه بعد عدة قرون .

ووقفت عند هذه القصة وحِرْتُ بين أن أَعدّها كتابًا أو قصة ، ورجحت الثانية لما حوته من عناصر فنية وخيالية تدعوني إلى ما ذهبت إليه .

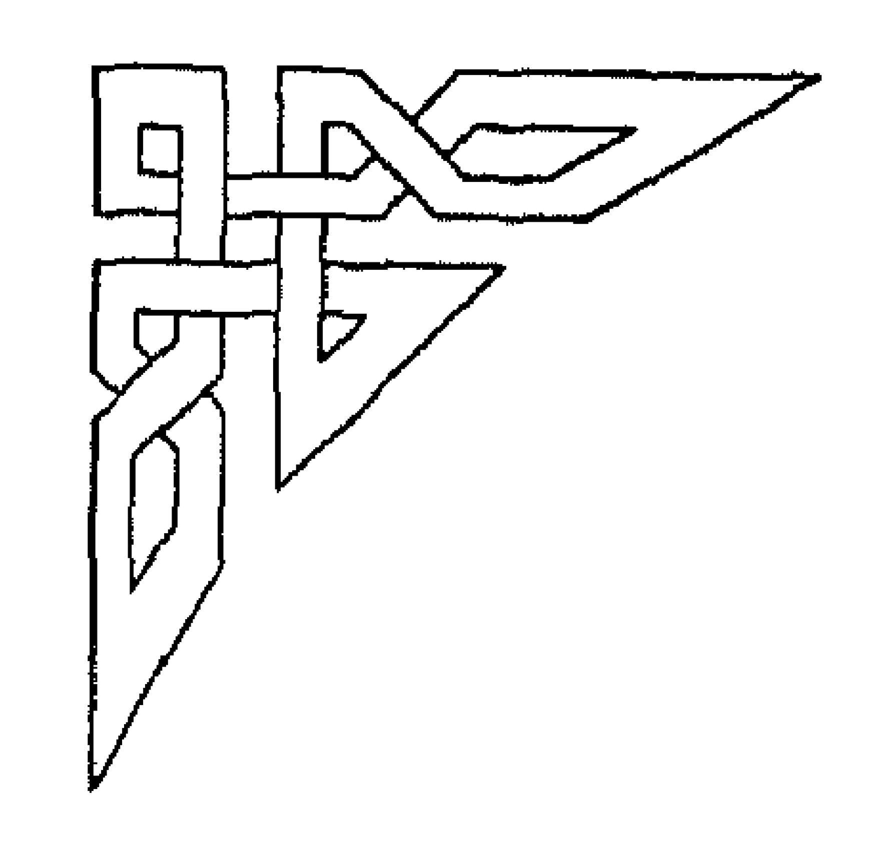
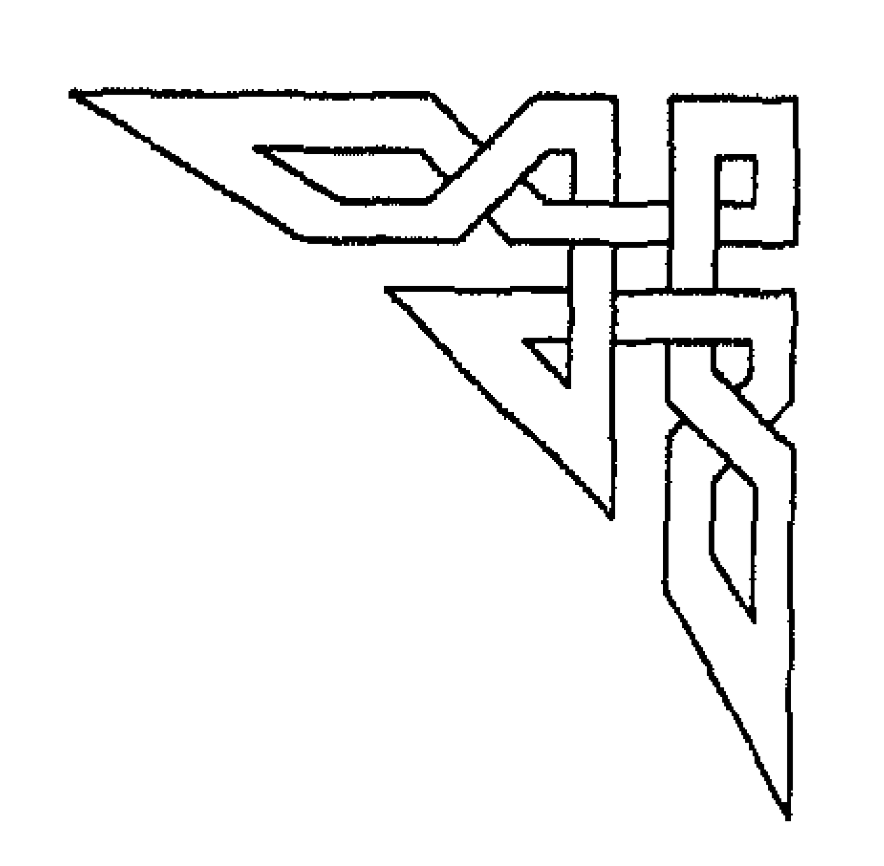
أما الفصل الثاني فكان في أدبه المشترك ، ويشمل «القصص المدرسية» ، «ومجلة سندباد» ، ومجموعة «كان يا ما كان» ، «والكتب المدرسية» ، وقد بينت موضوعاتها أيضًا .

وكان أدبه الطفولي عامة نموذجًا يمثل الآراء التربوية التي كان يدعو إليها سواء ما يتعلق منها بالكتب أم بطرق تدريسها ، وقد هدف من ورائها إلى غاية علمية ودينية وخلقية وسياسية .

وقد اتبعت في الدراسة المنهج الفني المعتمد على دراسة نفسية لمراحل الطفولة ، والحق يقال : إن لأديبنا فضلاً كبيرًا على أطفال مصر والعرب ، فهو من الرواد الأوائل في هذا المضمار .

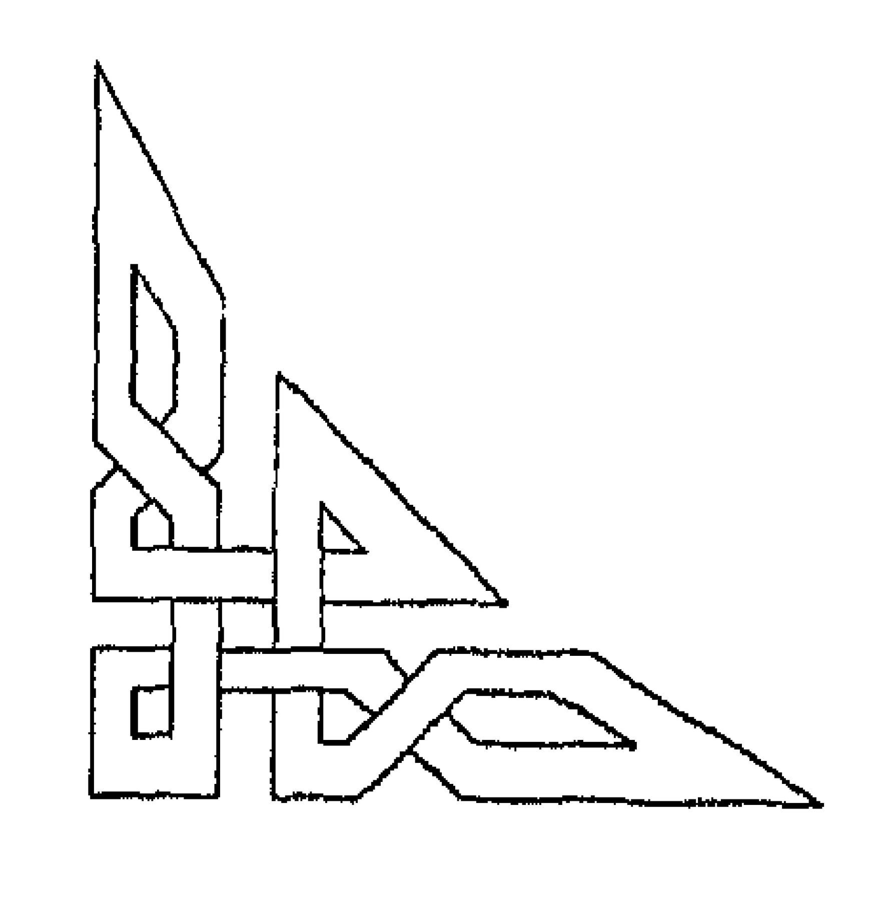
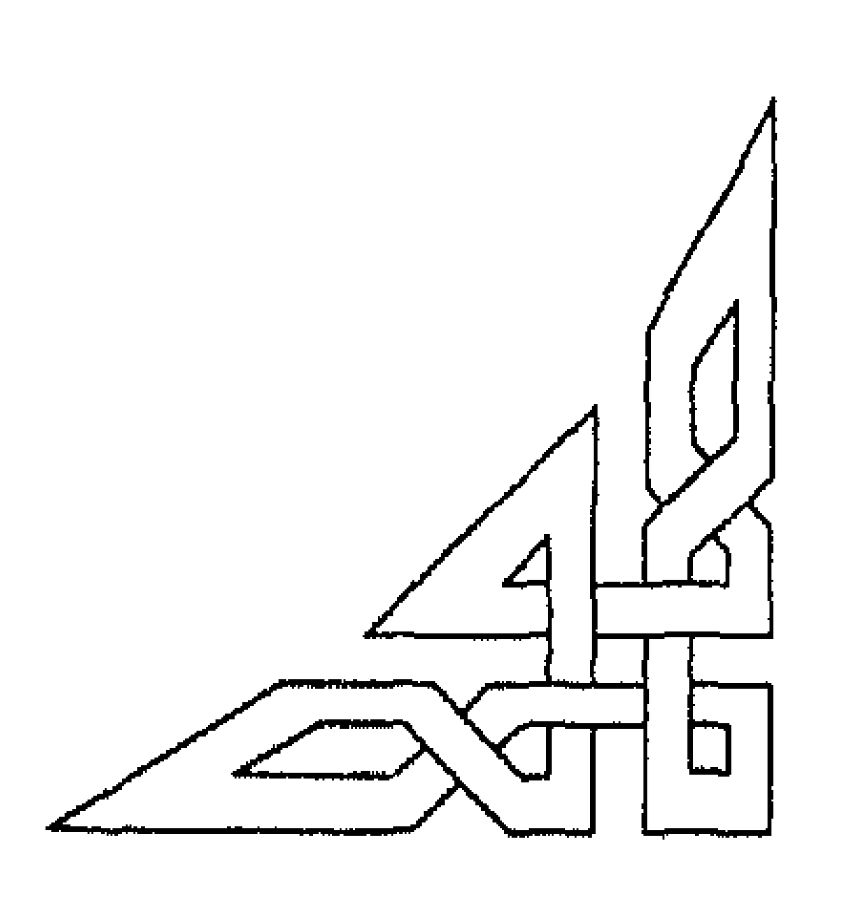
والله أسأل أن يجعل في ذلك خيرًا لأولادنا جميعًا ، وهو عز شأنه من وراء القصد .

المؤلفة .

مدخل إلى أدب الأطفال

عند العُريان

مدخل إلى أدب الأطفال عند العَرْيان

«الطفل أبو الرجل» (١) .

هذا رأي محمد سعيد العريان ، الأديب الذي كرّس وقتًا كبيرًا من حياته ليفيد رجال الغد ، حتى تعرّض للوم اللائمين (٢) ، الأمر الذي حدا به أن يؤلف للكبار ، ولا سيما أنه لم يلق تشجيعًا من الوزارة ، ولا مكافأة (٣) إلا أنه إيمانًا منه بأهمية المرحلة الأولى من عمر الإنسان عاد ثانية إلى الأطفال يؤلف لهم ، بل ويرأس تحرير مجلتهم سندباد التي دعا إليها وكتب أهم أقسامها ، ثم جمع أهم محتوياتها في «رحلات سندباد» وقصة «العرب» لاخريستوف كولمبس وقصص «كان يا ما كان» على نحو ما سيمر في هذا الكتاب .

ولقد استطاع بما بذله من جهد في هذا المضمار أن يسدّ ثغرة مازالت المكتبة العربية تعاني منها (٤) ذلك لأن الطفل كما يقول «ولوع بالقصة ... والأدب العربي على سعته وغناه يكاد يخلو من القصة السهلة التي يستطيع الطفل أن يقرأها في رغبة وشوق» (٥) - بل ودعا إلى العناية بأدب الأطفال - وطالب المؤلفين الذين يبتغون تلافي الضعف في اللغة العربية على ألسنة الطلاب وأقلامهم أن يؤلفوا لهم كُتبًا تجذبهم إلى قراءتها بما تحويه من عناصر مشوقة لهم

---

(١) الثقافة س ١٩٤٣ ع ٢١٤ ص ١٩ ، والكلمة للأديب .

(٢) ألّف القصص المدرسية مع الأستاذين أمين دويدار ، ومحمود زهران ، وكان الطفل غايته إلا أن الأدباء لاموه على ما يبذله من جهد للصغار ، ولم يلق تشجيع الوزارة ، فنهض إلى التأليف المعهود : الرسالة س ١٩٣٧ ع ٢١٠ ص ١١٣٠ بعنوان الضعف في اللغة العربية .

(٣) انظرالسابق .

(٤) انظر الرسالة س ١٩٣٧ ع ٢١٠ ص ١١٣٠ .

(٥) ذكر هذا في مقدمة قصة «مدمس أكسفورد» أولى القصص المدرسية بعنوان «إلى الآباء والمدرسين» ص (٣) .

كالقصص والرحلات ، وأن يبثوا خلال ذلك المادة العلمية المبتغاة ، وفي ذلك لذة عقلية للطفل ، ومتاع لروحه وتعويد له على القراءة ، وضرب لهم في ذلك أسوة حسنة حينا ألف كتب العربية والتربية الدينية للمرحلة الأولى مع غيره من الزملاء ، وبما بذله من جهد في تقديم كثير من المادة العلمية في مجلة سندباد ، والرحلات بطرق شتى تقربها إلى الأذهان .

ولقد تأسى العريان فيما ألف خُطَى كامل الكيلاني رائد الأطفال في مصر [(١)] كما تأثر بالرافعي إذ كانا يعمدان إلى التراث يبحثان في بطونه عن مادة للقصص ثم يؤلفان ما يناسب القراء الذين يتوجهون إليهم . وإن اختلفت غايتهما في ذلك [(٢)] . استمد العرْيان من روائع القصص العربي مادة ثم أخرجها بشكل يتلاءم وعقلية الطفل ، جذابة مشوقة في موضوعها وصورها ، سهلة في لغتها .

عنى أديبنا بجميع مراحل الطفولة ، فألف للأطفال دون الخامسة من عمرهم ، ثم استمر معهم حتى نهاية المرحلة الإعدادية ، وراعى في ذلك ما تتطلبه المرحلة فللأولى من عمر الطفل ، وهي مرحلة الخيال الحر التي تمتد بين الخامسة والثامنة [(٣)] قدّم لنا مع زميليه دويدار وزهران قصص كان يا ما كان، وضمّنوها أعداد مجلة سندباد ، كما أفردوها بالطباعة ، وهي قصص تتحدث عن الملائكة والجن والعفاريت ، ويكثر فيها السحر والخوارق بحكايات خرافية وشيقة،

---

(١) انظر مقدمة عبد الغني البدوي : كامل الكيلاني الرائد العربي لأدب الأطفال .

(٢) كان مصطفى صادق الرافعي يقرأ حياة شخصية ما - ثم يطوي الكتاب ويبسط ورقته يحكي على سطورها قصة هذه الشخصية بعد أن يعمل فيها فكره وخياله ، فتأتي وقد خالفت قصته الواقع - وكانت غايته خلقية ودينية «انظر حياة الرافعي ص (٢٠٤)» وأما كامل الكيلاني فقد أراد أن يستمتع أبناء الجيل العربي بتراثنا بعد أن هاله ألا يجده مساغًا إلاّ عند الخاصة من المتأدبين - فمضى يؤلف لهم قصصًا تُقرّب إليهم أدبهم الخالد ، وتنشيء الطفل تنشئة عربية فصحى . انظر لذلك : كامل الكيلاني الرائد العربي ص (٧) .

(٣) انظر خصائص هذه المرحلة في : أحمد نجيب : فن الكتابة للأطفال ص (٣٣) وكذا خصائص مراحل الطفولة كلها في ص (٣٣ - ٣٤) .

ذات خيال مستفيض جذاب ، مزودة بصورة ملونة مشوقة مؤثرة ، ويمكن أن نضم إلى هذه المرحلة ما ألفه من قصص لرياض الأطفال وفي مقدمتهم «محسن ومحاسن ومغامرات أرنباد» ، وكتب القراءة للصفين الأول والثاني من هذه المرحلة بما تتضمنه من أحاديث مروية على لسان الحيوانات .

أما المرحلة الثانية - مرحلة المغامرة والبطولة - التي تمتد من الثامنة حتى الثانية عشرة والتي يتجه الطفل فيها إلى الواقع ، ويهجر تدريجيًا الخيال والخرافة ، وإلى حب الرحلة والأعمال البطولية والمغامرات ، فقد راعى الأديب متطلباتها أيضًا في رحلات سندباد ، والعرب لاخريستوف كولمبس ، وفي القصص المدرسية ، وقصص المكتشفين والرحالة ، والأبطال ، والقصص الخلقية والدينية في مجلة سندباد ، وقد عمد في هذه المجلة إلى إرضاء نزعة الادخار والجَمْع التي تبتدئ في هذه المرحلة وذلك بجعلها أعدادًا مسلسلة يضطر الطفل إلى شرائها والاحتفاظ بها لمتابعة القصص .

وأما الميل إلى الجماعات التنظيمية فقد شجع إليه بما أوجده من ندوات تقام بين أعضاء المجلة ، وتنشر صورهم على صفحاتها ، وبما تحدّث فيها عن أسرة سندباد ونشاطها .

على أن الأديب لم ينس دور الفتاة ، فقد ألف لها قصصًا تلائم دورها الذي يخصها في حياتها المنزلية ، وذلك في قصته عروس الببغاء .

وكان محمد سعيد يعدّ هذه المرحلة الجسر الذي يعتليه الطفل لينتقل به إلى مرحلة الشباب ، ومن هنا فقد وَجّه إليها معظم إنتاجه .

أما المرحلة الثالثة ، وهي مرحلة اليقظة الجنسية التي تمتد فيما بين الثانية عشرة والثامنة عشرة والتي يستمر فيها ميل الأطفال إلى المغامرات والبطولات ، ويبدأ معهم الميل إلى القصص الجنسية فقد أهملها العريان ، إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار ما ألفه من رحلات تصلح لأوائل هذه المرحلة ، أما موضوع الجنس

فقد تعرض له في القصص القصيرة ، وفي أدب المقالة والخواطر [١] .

ولقد راعى في أدبه لهؤلاء الصغار - رجال الغد - اختلاف نظرتهم إلى الفن وتقديره ، «فالنوع الترابطي» [٢] وهو النوع الذي يقدّر صاحبه الإنتاج آخذًا بعين الاعتبار ما يثيره في ذهنه من ذكريات ، والذي يميل بصاحبه إلى تكرار النص مرات عدة ، فقد اهتم بمتطلباته حين كان يلخص في مجلة سندباد الحلقات السابقة للعدد المعروض علّ القارئ يسترجع ما مضى ، وذلك في رحلات سندباد ، والعرب لاخريستوف كولمبس وفي قصص كان يا ما كان .

و «النوع الحيوي» الذي يعجَب صاحبُه بالألوان الصاخبة التي توقظ أحاسيسه ، وتثير دمه ، وينفعل بها جسميًا انفعالاً يبدو في البكاء أو الضحك فقد كتب له قصصًا مثيرة مضحكة ومحزنة ، وجمّلها بصور زاهية في مجلته ورحلاته ، وفي قصة «محسن ومحاسن» للأطفال .

أما النوع الثالث وهو «الاندماجي» الذي يتقمص صاحبه دور إحدى الشخصيات أو البطل نفسه ، فقد قدم إليه رحلات سندباد ، والقصص المدرسية .

والنوع «الواقعي» وهو الرابع الذي يحكم على الشيء بنظرة محايدة ، ويتلقى الأمور تلقيًا عاديًا فتصدر أحكامه لذلك واقعية بعيدة عن تأثر الذات، فإنه يسهل على القارئ - أي قارئ - أن يقف وقفة الحياد ، ويقوّم القصة كما يشاء إن خيرًا فخيرٌ ، وإن شرًا فشر .

ولم تقتصر عناية الأديب على مراعاة الأمور التربوية والنفسية للطفل بل عني إلى ذلك بالأمور الفنية للوسيط الذي ينقل على صفحاته وينقله إلى

---

(١) ينظر للمؤلفة كتاب بعنوان : «محمد سعيد العريان حياته فن المقالة والسيرة عنده ، وآخر لقصصه بعنوان : «فن القصة عند محمد سعيد العريان» .

(٢) انظر الأنواع كلها في : فن الكتابة للأطفال ص (٥٣) ، ولقد سمى المؤلف النوع الثاني بالفسيولوجي وآثرت اللفظ العربي «الحيوي» عليه .

الصغار ، وعلى سبيل المثال تمكّن ، كمحرر لمجلة سندباد ، أن يعرض فيها مسابقات أدبية ، وأخبارًا محلية تهم الصغار ، وقصصًا تعرفهم على أحوال الشعوب المعاصرة ، مما يتطلبه هذا الفن - فن صناعة مجلة الأطفال - واستطاع ككاتب لرحلات سندباد أن ينهي كل عدد عُرض في المجلة بمفاجأة أو لغز - أو عامل مشوق يسرع بالطفل إلى متابعة ما يلي ذلك من أعداد - ولكنه حينما طبعها في كتاب قلّل منها مراعاة للوسيط الذي عرضت فيه المادة .

إضافة إلى ما سبق فقد ساهم العريان في تكوين شخصية الطفل الفردية والاجتماعية ، فجعل منه إنسانًا يتكيف والبيئة التي يعيش فيها ، ويوفق بين رغباته الذاتية وتقاليد المجتمع وأنظمته بما تضمنه من دعوة إلى الخير ، والعمل الصالح ، والجرأة ، ونبذ الأنانية وسوى ذلك ، مما يساعد الطفل على انتقاله إلى المدرسة الابتدائية ثم الإعدادية حيث الجو الاجتماعي الجديد ، وبكل ما يتطلبه من مواقف جديدة تعينه على العيش بهناءة وسعادة ، مستندًا إلى أسس قويمة من الخلق والقوة والنظام الجماعي ، ويأتي في مقدمة هذا الأدب القصة بما تحويه من حوادث تحكي سير أبطالها ، وتكون في ذلك أسوة لقرائها .

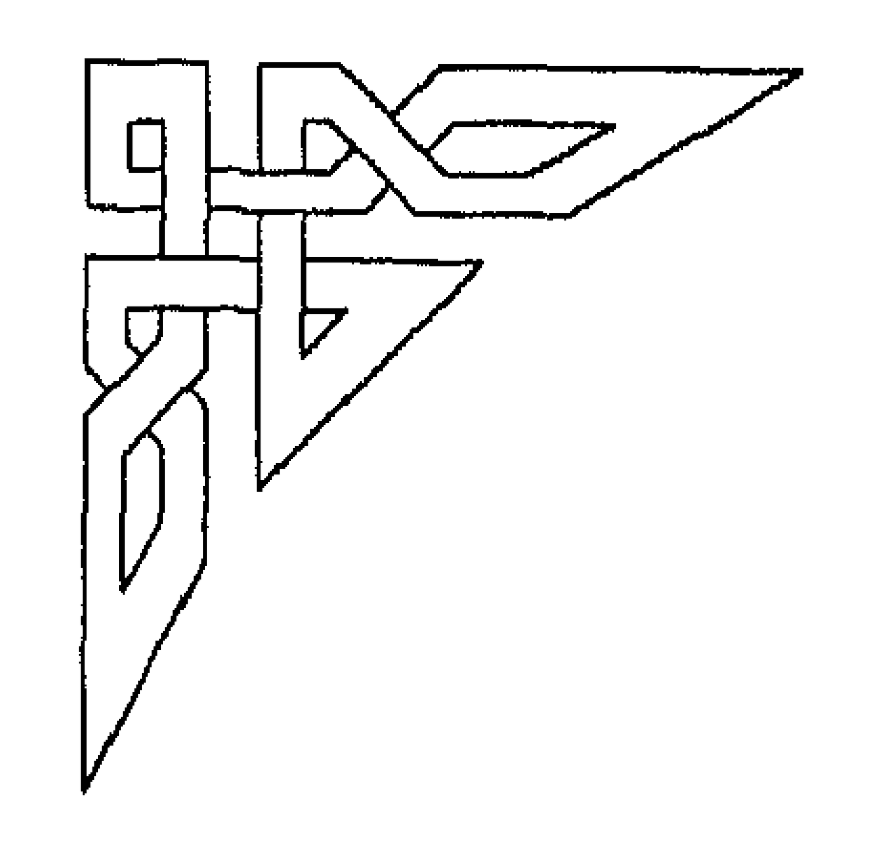
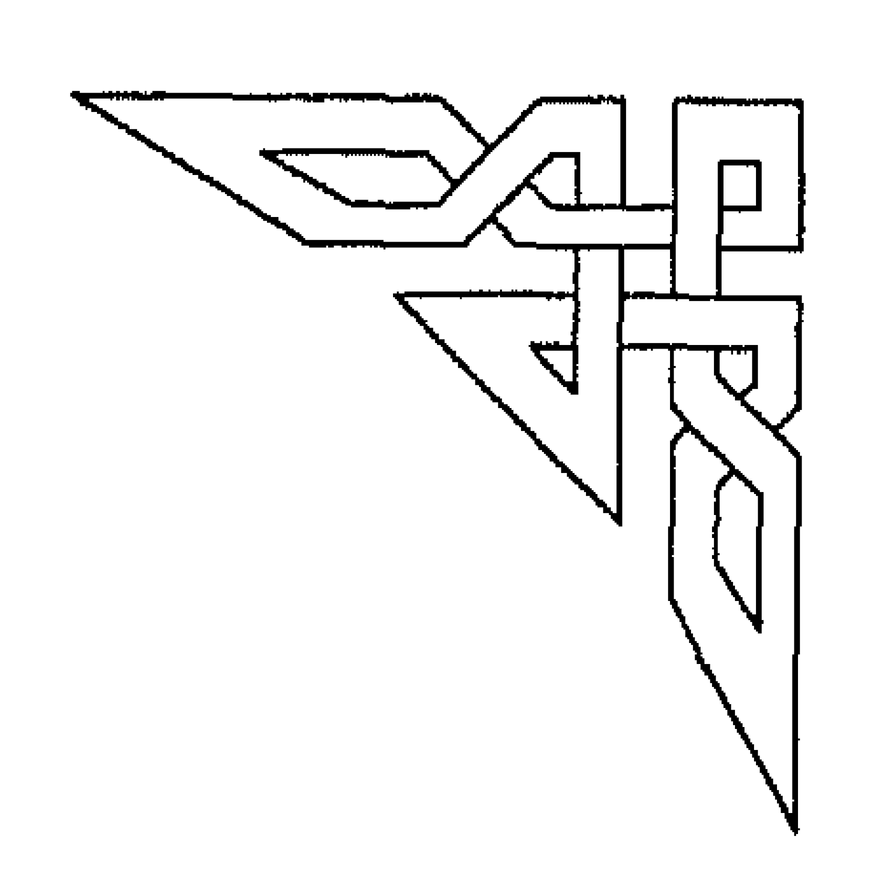
وهكذا خاض أديبنا مجال أدب الاطفال مراعيًا في ذلك متطلباتهم الفردية والاجتماعية والتربوية ، ومتطلبات الوسيط ، واستحق أن ينال جائزة سندباد عام (١٩٦٢) [١] وجائزة أدب الأطفال عام (١٩٦٣) [٢] .

***

---

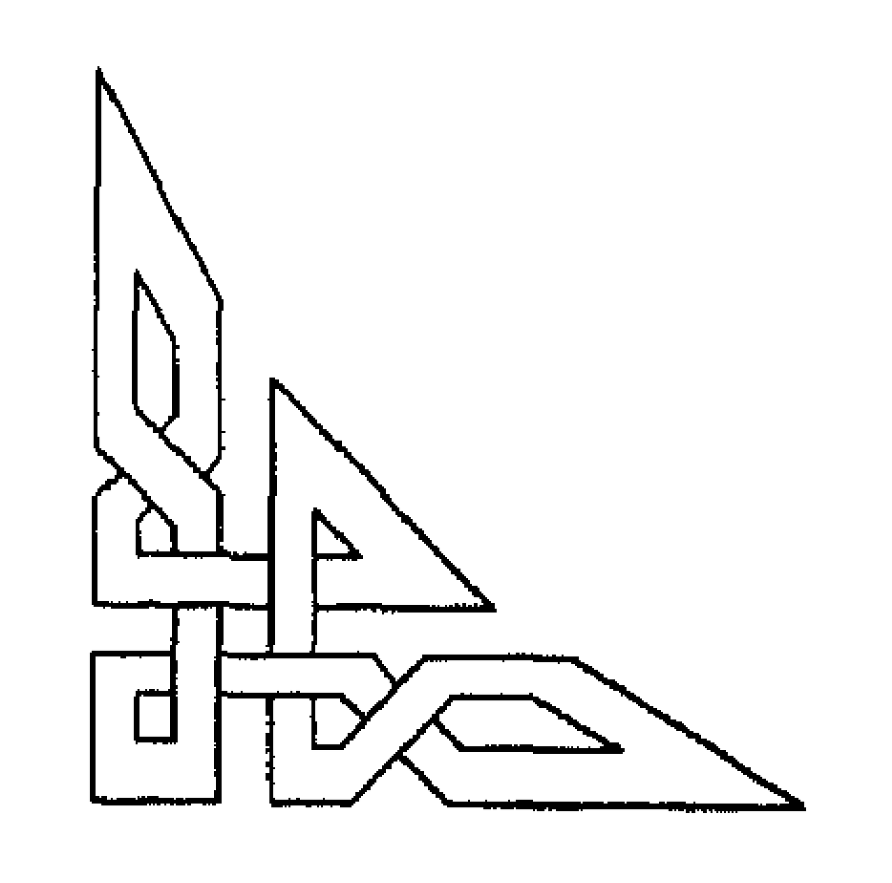
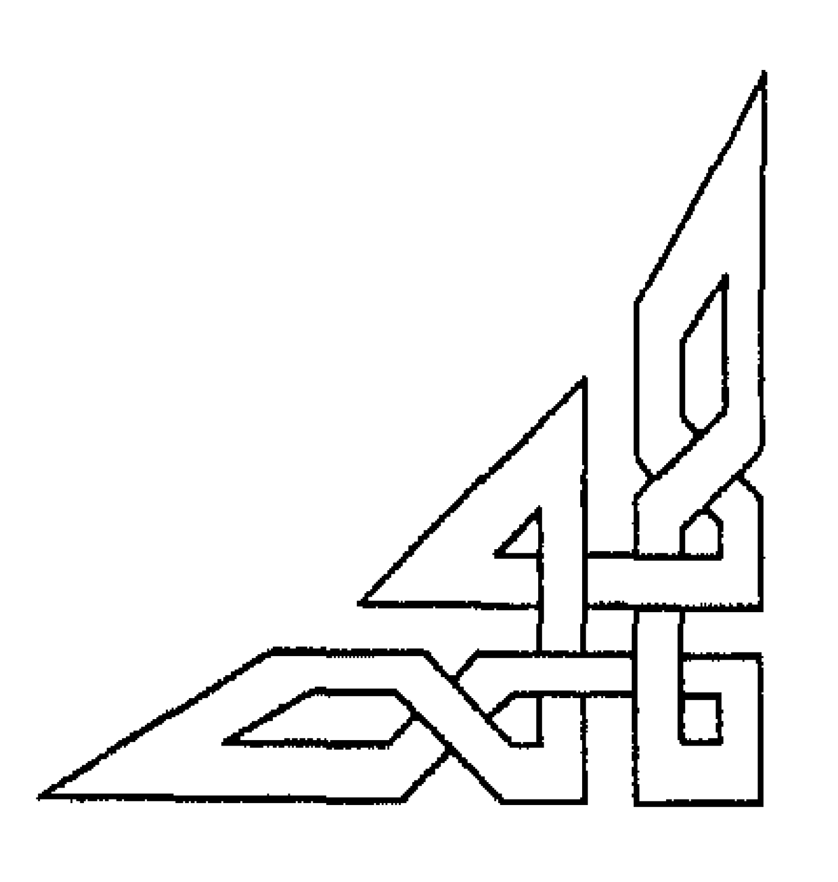
(١) انظر كتاب جوائز الدولة ص (٦٧) .

(٢) مقابلة مع زوجه في ٩٧٤/١/٢٦ و ٩٧٤/٢/٤ .

الفصل الأول

أدبه الطفولي منفردًا .

الفصل الأول
الرحلات

أولاً : رحلات سندباد .

١- فكرتها :

وتقع في أربعة أجزاء يضم كل منها رحلة من رحلات سندبادَ - بغدادي معاصر - للبحث عن أبيه الذي سافر في تجارة ثم لم يعد ، ومرّ على رحيله خمس عشرة سنة شَبّ فيها ابنه الذي كان جنينًا يوم فارقه ، وماتت فيها زوجه ، وعاش سندباد في رعاية عمته مشيرة مع أخته قمر زاد .

وتعد هذه الرحلات قصة واحدة قسمها مؤلفها إلى أربعة أجزاء ، يضم كل منها رحلة إلى منطقة من المناطق ، لاقى خلالها سندباد من الأهوال الجسام ما يشيب الصغير ، ثم نجا منها برحمة الله تعالى ، وقد حقق أمنيته برؤيا أبيه في آخر رحلاته ، والتأم بذلك شمل الأسرة وعاد الأمن والطمأنينة إلى قلوب أفرادها .

٢- وصفها :

والرحلات هذه متناسبة في طولها ، إذ يزيد عدد صفحات كل منها على مئتي صفحة من الحجم المتوسط طبعت بحروف متوسطة تميل إلى الكبر مُشكّلة لتسهيل قراءتها على الصغار ، وزودت بصور غير ملونة .

وكانت قبل طباعتها تنشر تباعًا في مجلة سندباد ، منجّمة على أعدادها، مزودة بصور كبيرة ملونة بألوان زاهية ، ويزيد عددها على صور الكتاب ، كما يختلف شكلها عنها أحيانًا ، وقد آثر الأديب - كما أرى - أن يطبعها في كتاب

تسهيلاً وتعميماً للقراءة ، إيماناً منه بأن الرحلة تُحصّل العلم ، وتكسب الفائدة ، وتعرّف على أوضاع الشعوب ، فتعمل بذلك على جلب مودتها ومحبتها ، وكان يقول «الرحلة نصف العلم» [1] ولئن فات كثير من الناس فوائد الرحلة فإنهم يستطيعون أن يعوّضوا ، ولو بنقص ، بعض ما فاتهم عن طريق المطالعة .

ورحلة سندباد المطبوعة في كتب أربعة تختلف عن المنشورة في المجلة في توزيع مادتها لا في مضمونها «إجمالاً» وسيمر تفصيل ذلك بعد إن شاء الله .

٣- موجز الرحلات

أ - الرحلة الأولى :

ولد سندباد لأب تاجر لم تكتحل عيناه بمرآه ، فقد ذهب في تجارة لم يعد منها ، ولما أيفع الولد عزم على البحث عنه مهما كانت التضحيات ، وودع عمته وأخته ، واتخذ طريقه لغايته ، وتعرف إبّان بحثه عنه على شخصيات عِدّة من أصحاب أبيه ولقي مصاعب جمة كان أشدها وقعًا في نفسه ما صادفه عند ملك الجبل ، فقد شخص له الموت في سردابه ، ثم نجاه الله ، وعرف بعد أن أباه اتجه إلى «سرنديب» [2] فركب البحر ، إلا أن عاصفة هوجاء قطعت عليه رحلته وأوصلته ورفيقًا له جعفريًا إلى جزيرة تعرفا خلالها على وحش بشري آنساه ، وعلماه ، وسمياه هلهال ، ثم أسر ثلاثتهم عند هنود ، ونجوا بذكاء سندباد ، وعادوا إلى جزيرتهم ليروا تجارًا بحرانيين قد ألقاهم القدر إليها ، وكان فيهم شهبندر والد سندباد ، ونجا هؤلاء قبل أن يتعرف سندباد على أبيه ، ثم عرف فحزن حزنًا أليمًا وصمم على العودة إلى وطنه ليستعد لرحلة أخرى لمتابعة البحث .

* * *

---

(١) الثقافة س ١٩٤٣ ع ٢٥٦ ص ٢١٢ بعنوان «وحدة العاطفة» .

(٢) مدينة في جزيرة «سيلان» سيريلانكا حاليًا .

ب- الرحلة الثانية :

صحب هلهال سندباد في رحلته الثانية ، إلا أن المقادير جعلتهما رقيقين يرعى أولهما الأغنام ويقدم رأس الآخر لبوذا معبود الهنود فدية لابن أحدهم ، لكن سندباد استطاع بذكائه وبمساعدة سيزا جارية سيده أن ينجو ، وينجو معه هلهال وسيزا ، ويكتشف سندباد بعدّ أن هذه أخت له خطفها تجار الرقيق وباعوها في هذه الديار النائية من المحيط الهندي فيصحبها وأمها إلى بغداد ، وهناك يعلم أن أباه كان فيها ولكنه لم يستطع التعرف على مسكنه ، لأنه ذهب لزيارة أصحابه في واحة الحارثية ، فعزم سندباد على اللحاق به .

ج- الرحلة الثالثة :

وفي طريقه إلى الواحة ألقى مجاهدون القبض عليه وهم يحسبونه عدوًا جاء يترصد أنباءهم ، ثم أطلقوا سراحه ، فواصل مسيرته على الرغم من أن الأجل المضروب لرؤيا أبيه قد نفذ ، واعترضته مصاعب جمة كان أهمها ما حدث له بسبب السرداب ، إلا أنه نجا ، ورافق قافلة تجار إلى الصومال ، لكن أخطار البحر أوقعته في قبضة الغيلان ، ثم أُنقذ منها ليعود إلى وطنه يائسًا من رؤية أبيه .

د- الرحلة الرابعة :

وكانت إثر رسالة جاءته من جاسر خال أخته سيزا «شمس زاد» حثّته على متابعة البحث عن أبيه ، فركب البحر إلى عدن ، وهناك اتهم بقتل صاحب الفندق ، ثم بُرّئَتْ ذمته ليعود إليه مالكًا له ، لكن كنزًا كامنًا فيه عرّضه لأخطار مؤامرات خلص من كيدها بمعونة شيخ القافلة ، واستقلاّ مركبًا عبر بهما وبمن معهما محيطًا هادئًا ، ثم عاصفًا هائجًا قلب السفينة ، ورمت المقادير ركابها إلى جزيرة النسانيس (١) ، وكادوا يقعون فريسة فتكهم وبطشهم

(١) حيوانات خرافية ناطقة - تأكل الإنسان- ولها عاداتها وأعرافها كما صورها الأديب .

لولا ذكاء شيخ القافلة ورباطة جأشه ، بل كان لهذا فضل رؤية شهبندر ، والد سندباد مختبئًا في مغارة خائفًا من بطش النسانيس ، منتظرًا سفينة تقله إلى بلاده ، ففرح سندباد ، وفرح والده واجتمع شمل الأسرة بعد تشتت وغياب طويلين .

٤- *موضوعات الرحلات وبيئاتها :*

تعددت موضوعات الرحلات بين حقيقية تتحدث عن الأديان والعادات الاجتماعية ، والأوضاع الاقتصادية ، والأحوال الجغرافية ، وخرافية وخوارق لا يقبلها عقل ، ولا يؤيدها منطق سوى ما يستلذ به الخيال من الحديث عن مخلوقات عجيبة ، أو كالعجيبة في هيئتها ونظام حياتها .

أ- *الموضوعات الواقعية :*

وتبحث هذه في الأوضاع الدينية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية تلك التي اضطلع عليها سندباد في بحثه ، وتنسب إلى الحقيقة وإن كان في بعضها مغالاة واضحة - لكنها مقبولة - تقوم بها شخصية واعية نيّرة عند أقوام بدائيين يؤمنون بخرافات ، ويعبدون الأصنام أو النار . وهذه الأوضاع هي :

١- *البيئة الدينية :*

يسود الحديث عن البيئة الإسلامية والمجتمع المسلم جوّ القصة بأجزائها الأربعة ، ويبدو متناثرًا هنا وهناك على لسان الشخصيات ، أما عقائد الأمم الأخرى فتبدو مجتمعة في حديث مسلسل يحكيه المؤلف على لسان سندباد وصحبه إبان اعتقالهم بأرض من الأراضي ، أو وصولهم إلى ديار يعبد أهلها غير الله .

والديانات الواردة في سياق الرحلات ثلاث : إسلامية ، ومجوسية ، وبوذية ، وهي الديانات المنتشرة في العالم الإسلامي .

فالمعتقدات الإسلامية تبرز في الإيمان بأن الله واحد لا شريك له ،

وأنه يحيي الموتى ويشفي المرضى [١] ، وأنه هو المعبود ولا يحل لبشر كائنًا من كان أن يتألّه أو يصطنع دور القداسة أو الدجل ، إلا مضطرًا لينقذ نفسه من أقوام كفرة ، بعد أن عدمت الوسلية مع الاستغفار والتوبة إلى الله ، والإنابة إليه في السر والعلانية [٢] ، وترقّب الفرصة لتعليم هؤلاء الأقوام الجهلة الدينَ الحق [٣]، والمسلم يتوكل على الله ويعتمد عليه ، ويستعينه [٤] ، ويستسلم لقضائه ، ولا يقنط من رحمته لأن الأمور بيده ، وإليه يتوجه وقت الشدائد بالصلاة والتسابيح والأدعية [٥] ، كما يتقرب إليه بالدعاء له ولمن يعرفه من الأحياء والأموات ، والله قريب مجيب الدعوات ، ويلجأ المسلم إلى حرز مصون من آيات الله البينات يحمله معه ليكون منجاة له من المكاره [٦] . وهو تعالى يسهّل له الأمور ، ويهديه سبيل الرشاد ويوفقه في أعماله [٧] ، وإيمان المرء بهذا يزيده قوة وهمّة ، ويساعده على تخطي الصعاب حين يقويّ أمله [٨] ، والمسلم يحمد الله على ما أنعم عليه من خير ، ويشكره معترفًا بفضله ورحمته لعباده ، وبعدله بين مخلوقاته [٩] ، ويؤدي ما كتب عليه من عبادات كالصيام والصلاة التي يقيمها بخشوع وتبتل ، ويحفل بعيد الأضحى [١٠] ويبتعد عن أكل الحرام [١١]

---

(١) انظر الرحلة الثانية ص (٣٦- ١٤٨) .

(٢) انظر الرحلة الأولى (١٧٢) ، والثانية (١٤٠) .

(٣) انظر الرحلة الأولى ص (١٧٣) .

(٤) انظر الرحلة الأولى ص (١٥ ، ١٤٣ ، ٢٢٥) ، والثالثة في مجلة سندباد السنة الثالثة ع ٤٧ ص (١٣ - ١٤) ، والرابعة ص (٩ ، ٢٨ ، ٢٠٧) .

(٥) انظر الرحلة الرابعة ص (٨٧ ، ١٤٨ ، ١٧٩) ، والأولى ص (٢٩ - ٩١) .

(٦) انظر الرحلة الأولى ص (٢٩ - ٨٩) .

(٧) انظر الرحلة الثانية (٧٢) .

(٨) انظر الرحلة الرابعة (١٤٨) .

(٩) انظر الرحلة الأولى ص (٢٨ ، ٩٢ / ١٣٦) ، والثانية (٣٢ ، ١٥٠ ، ١٨٥) ، والثالثة (٩٤) والرابعة (٢٨ ، ١٣٧ ، ٢٠٧) .

(١٠) انظر الرحلة الأولى (٢٧ ، ١١٩ ، ١٦٥٠) ، والثانية (٩٨) ، والرابعة (٤٩ - ٥١) .

(١١) انظر الرحلة الأولى (١٦٢) ، والرابعة (١٩) .

ويرد الدَّين والأمانات إلى أهلها ، ويستغل أمواله بجد ونشاط ، وفي طرق مشروعة [١] .

وهو يجاهد أعداء الله بالمال والنفس ، ويقاطع من ينتهك حرمات الوطن [٢] .

أما عباد النار «المجوس» فهم قوم من الهنود يقطنون جزيرة في المحيط الهندي [٣] ، ومن تعاليمهم الدينية تقديس النار ، والانحناء لها والتمتمة بخشوع أمامها [٤] ، وعدم الاقتراب منها خوفًا إلا الكاهن الأعظم الذي يخدمها لتظل مشتعلة أبدًا تمنحهم الدفء والنور ، ومن يقترب منها يستَحِلْ فحمة أو رمادًا ، وهم يؤدون شعائرهم في معبد عتيق بوسطه حفرة النار ، فإذا ما أرادوا أن يوقدوا نارًا في مجلس الرئيس ليتبرك بها اقتبسوا منها جذوة يحملها كاهن من كهنة المعبد في وعاء من قشر القرع إلى مجلسه ليسبّح لها ، ثم يسرع بها الكاهن إلى وسط الساحة ويضعها على الأرض بخشوع ، ويقبل الرجال فيلقون عليها الحطب ، وفروع الشجر حتى يعلو لهيبها ويبتعدون عنها مسافة ذراع حذرًا وتقديسًا ، ويستديرون حولها حلقات وقد عقدوا أيديهم على صدورهم محيطين برئيسهم ، ثم يأتي أحدهم بوَغْلٍ حيّ مقيد بقيود غليظة ويلقيه في النار ، فلا يزال على جمرها حتى تحترق قيوده فإن كان به رمق من حياة أفلت من النار ، وجرى مسرعًا فتتناوله أيدي القوم ليأكلوه نيئًا ، والسعيد من يظفر بقطعة منه ، أما من مات في النار فإنهم يدعونه حتى يصير رمادًا ، ويظلون في وقفتهم خاشعين حتى توشك النار أن تنطفئ فيتقدم كاهن ليقتبس منها جذوة يجري بها في وعائه إلى المعبد على حين تخمد بقية النار في الساحة ، ويتفرق القوم عنها

---

(١) انظر الرحلة الثانية (٣١) ، ومجلة سندباد السنة الثالثة ع ٤٦ ، والرحلة الثالثة ص (١٣ - ١٤) .

(٢) انظر الرحلة الثالثة (٥٢ ، ٥٨ ، ٥٩) .

(٣) انظر الرحلة الأولى (١٦٠ - ١٦١) .

(٤) انظر السابق .

بعد أن يحمل كلٌّ قبضة من رمادها بركةً إلى داره ويعاقب من يقتحم النار عقابًا أليمًا قد يصل إلى الموت [١] .

على أنهم لم يكن ليخطر على بالهم أن هناك نارًا أخرى غير النار التي يحفظونها في معبدهم ، ومن ثمَّ كانوا شديدي الحذر من انطفائها لأنها بزعمهم خالقهم - وبزوالها تقوم الساعة - ويفنى العالم ، ومن هنا أيضًا يعدّ من يقدر على إيجادها بأية وسيلة إلهًا يجب تقديسه [٢] .

أما البوذية فقد طالعتنا تعاليمها في الرحلة الثانية ، ومعتنقوها قوم يقطنون جزيرة في المحيط الهندي أيضًا ، يقدسون وثنًا ضخمًا من المرمر بُني له معبد ضخم ، وكسي بثياب منسوجة من خيوط الذهب ، وزُيّن بعقود من الماس والياقوت ، ووضع على رأسه تاج من الفضة تتلألأ فيه مئات اللآلئ النادرة .

ومعبودهم هذا الذي صنعوه بأيديهم يركعون بين يديه ، ويتقربون إليه بالهدايا والذبائح ، وله عيد يحتفلون به في كل عام ، ويحجون إليه من أطراف الجزيرة ، وكان ينتهز هذا العيدَ الكبير مَنْ له حاجة ليتقرب إلى الصنم بذبح عبد من عبيده لم يتجاوز العشرين من عمره ، مجلوب من بلد بعيد ، إلى صفات أخرى يصعب توافرها في أحد ، فإن اجتمعت في العبد الذبيح تقبّل الإله - برأيهم - دمه ، بعد أن يسفك تحت قدميه ، ويترك لحمه لسباع الفلاة ، وجوارح الطير ، ويسمع حينئذ من ناحية ذلك الصنم صوت يقول لصاحب الحاجة : «أيها العبد الصالح قد تقبلنا قربانك ، وقضينا لك حاجتك ، فارجع إلى أهلك مأجورًا مبرورًا ، مغفورًا لك !» ، أما إن كان العبد الذبيح غير كامل الشروط فإن دمه يظل رطبًا فلا يجف فيعود صاحبه

---

(١) انظر الرحلة الأولى ص ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٦ .

(٢) المرجع السابق ١٦٣ / ١٦٩ ، ١٧٣ .

خائبًا إلى أهله ، لا مأجورًا ولا مبرورًا ، ولا مقضيّة حاجته (١) .

على أنهم كانوا يعتقدون أن بمكنة هذا الوثن أن يختار بشرًا لجواره فيخفيه بعيدًا عن أهله ليختبر إيمانهم ، وأن يرده إليهم بقربان يرتضيه منهم وأن القديس يرد إلى الأهل ما أخفاه الصنم ببركته ودعائه ، وأن هذا يشفي المرضى ولذا كانوا ينحرون له الذبائح في الاحتفالات الدينية التي تضاء فيها الشموع ، وتوضع مجامر البخور لتعبق بروائحها الزكية ، ويدعى كهنة المعبد ليشاركوا فيها ، وهم يرتدون ثيابًا فضفاضة ، وعمائم ضخمة ، وتقرأ التراتيل الدينية باسم رب النور والنار (٢) .

وفي تلك البيئات تنتشر الأحاديث التي لا يقبلها عقل ولا منطق ، ويكثر الدجالون والمشعوذون (٣) .

٢- البيئة الاجتماعية :

عرض محمد سعيد العريان في رحلاته هذه أوضاع المجتمع العربي المعاصر ، كما تخيله ، مجتمعًا تجاريًا يتناقل فيه التجار برًّا على قوافل تسير على البراري والقفار ويعترضها قطاع الطرق يسطون على أموالها (٤) . فيفقد أهلوها أموالهم وأموال القبائل الأخرى التي يتاجرون فيها ، فتنشب بينهم الخلافات والعدوات ،لكن وسطاء الصلح يسعون إلى إصلاح ذات البين ، فتصفو القلوب ، وتزول الضغائن (٥) .

وقد تعترض الوحوش البرية طريق المارة فتفتك بهم وبحيواناتهم (٦) . ويجتاز التجار والمسافرون الطرق البرية على ظهور الإبل أو على عربات يجرّها

---

(١) انظر لهذا كله : الرحلة الثانية ص (١٠١ - ١٠٣) .

(٢) انظر الرحلة الثانية ص (١٣١ - ١٣٣) ، وفصل بذور السلام ص (١٥٢) ، و (١٤١ - ١٤٣) .

(٣) انظر المرجع السابق ص (١٤٤ - ١٤٥) .

(٤) انظر الرحلة الأولى ص (٢٩ ، ١٠١) ، والثانية ص (٨٦ - ٩٣) .

(٥) انظر الرحلة الأولى ص (٨١ ، ٨٢ ، ١٠١) والرحلة الثانية فصل الصلح خير ص (٣٣) .

(٦) انظر الرحلة الأولى ص (٦١ ، ٦٢) ، والثالثة ص (٧٦) .

ثوران وتستعمل هذه أيضًا في نقل الحاصلات الزراعية (١) .

وقد يسافر التجار بحرًا بسفن تمخر الطرق البحرية المارة بالجزيرة العربية إلى المحيط الهندي (٢) ، وغالبًا ما تهب الأنواء ، والعواصف الهوجاء فتقلب السفن ، ويغرق أهلوها ، وقد ينجو بعضهم فيصلون إلى جزر منقطعة في المحيط ويمكثون فيها منتظرين مراكب تقلهم إلى ديارهم ، وقد يطول بهم الانتظار أكثر من عام ، وقد ينتقلون على مراكب تحملهم إلى ديار مأهولة بها أقوام ذوو عادات وأديان تختلف عما يعرفه المسلمون (٣) .

وقد يغيب تاجر عن أهله ودياره بضع سنوات دون أن يدروا من أمره شيئًا . وربما كان منقطعًا في جزيرة من الجزر يرجو الخلاص ، ولات ساعة خلاص ، على حين يعاني أهله مرّ العيش ، وآلام الفَقْد ، حتى يقدُم إليهم سالمًا ، أو تصلهم أنباؤه فيعود السرور ويتبدل الحزن ابتهاجًا .

على أن بعض التجار قد يطول بهم السفر فيستقرون في المواطن التي حلّوا فيها ويتخذون لهم من بناتهم أزواجًا ، ويكبر أبناؤهم الذين تركوهم في بلادهم ليبحثوا عنهم ، ويعانون الآلام المحضة من جراء ذلك ، وقد يساعدهم القدر فيلتقون بهم ، ويتعارفون عن طريق التجار المنتشرين في الفنادق والأسواق (٤) .

والعمل ذو شأن يقدّره عامة الناس ويرونه شرفًا لهم ، إلا أن بعض السادة يأنفون منه ، ولو كان فيه سد رمقهم (٥) . لكن بعض هؤلاء المتكبرين قد يتأثروا وقت شدتهم بذوي الهمة والنشاط فيقومون بالأعمال الموكولة إليهم

---

(١) انظر الرحلة الثانية ص (١٦) ، والثالثة ص (٧٤) .

(٢) انظر الرحلة الثانية ص (١٤) .

(٣) انظر الرحلة الأولى فصل غرق السفينة ص (٨٩ ، ١٤٩ ، ١٧٦) ، والثانية ص (١٥٠) .

(٤) انظر الرحلة الأولى ص (١٢) ، والثانية (٧ - ٨ - ٣٩ - ٦٨ - ١٧٧) ، وفصل شمس زاد أختي ص (١٨٨) ، والرحلة الرابعة ص (٢٠) .

(٥) انظر الرحلة الأولى ص (٩٤) ، والثانية ص (٦٠ - ٦٣ - ٦٦) .

خير قيام [١] .

والرق مهنة شائعة عند الأقوام التي تقطن جزر المحيط الهندي ، ويقوم به نخاسون يسرقون الأطفال من أماكن شتى ، أو يحتالون على الرجال ثم يبيعونهم [٢] . والعبد المسترق يمقت حياة الخدمة ، ويود لو أتيحت له فرصة الهرب ، أو افتداء نفسه [٣] ، ويصل إلى سيده بعد بيعه في سوق ينادى فيها على محاسنه ، وينتقل إلى سيده ما كان احتازه من أموال وأمتعة ، وللسيد عليه حق الطاعة والاحترام ، والخدمة في أي عمل يوكل إليه [٤] .

والمرأة المسلمة في مجتمع «رحلات سندباد» إنسانة تحمل قلبًا طيبًا ، فهي تربي الأولاد اليتامى في أسرتها ، وقد يسافر زوجها إلى موطن ما فينقطع خبره وتسوء حالها ، وقد تعرف مكانه فتذهب إليه [٥] ، وهي ذات حياء وعفة ووقار ، وذات حجاب يمنعها من مخالطة الرجال إلا لحاجة ، ولا سيما في القبائل [٦] ، والزواج من اثنتين غير مرغوب فيه ، وإن كان متبعًا [٧] ، والرجل يغار على المرأة ، ويمنعه إباؤه أن تهان كرامتها ، أو أن تصيرَ أمةً عند أقوام أخرى [٨] . أما المرأة غير المسلمة فلم تتعرض لها القصص .

ويبدو في الرحلات اختلاف الحضارة باختلاف البيئة التي يحل لها سندباد ، فالجزر المنقطعة في المحيط الهندي أو شبه المنقطعة تتخذ من ورق الشجر وجلود الحيوانات لباسًا لها [٩] ، على حين تتعدد أنماط الثياب في المدن

---

(١) انظر الرحلة الثانية ص (٧٣) .

(٢) انظر الرحلة الثانية ص (١٠٠ - ١٨٩) .

(٣) انظر المرجع السابق ص (٩٤ - ٩٥) .

(٤) انظر السابق .

(٥) انظر الرحلة الأولى ص (٧ - ١١ - ١٢٥ - ١٢٦) .

(٦) انظر الرحلة الثانية ص (٢٠ ، ٢٠٠ - ٢١٩) .

(٧) انظر الرحلة الثانية (٦٧ - ٦٨) .

(٨) انظر الرحلة الثانية ص (١٣٣ - ١٣٤) .

(٩) انظر الرحلة الأولى (١٣٤) .

العربية ، فهناك اللباس البغدادي ، والمصري ، والمغربي [١] ، وكذا الطعام ، فالأقوام البدائية المجوسية تتناول اللحم نيئًا ، على حين يذبحها المسلم ثم يشويها أو يطبخها ليأكلها [٢] .

وتختلف العادات الاجتماعية في المجتمع العربي المسلم عنها في المجتمعات البوذية والهندية ، فللعرب عادات في الخصام والضيافة [٣] ، وللهنود عادات خاصة بهم فضيفهم يكرم بالخمر فإن لم يفقد وعيه وضع على رأسه تاج ريش اعترافًا بما يتحلى به من عقل وقوة [٤] ، وللبوذيين عادات متميزة أيضًا [٥] .

وتبدو في مجتمع القصة نفحة خلقية بارزة من أهمها إكرام الضيف ، ومساعدة المحتاجين من المرضى أو الغرقى ولا سيما إذا كان المستغيث قد أسدى إلى مغيثه معروفًا ، وإن كان عدوًا [٦] ، وكذلك التسامح والعفو عن إساءات الآخرين ، والصديق منهم خاصة ، والاعتذار لمن أخطأ المرء معه ، وإصلاح ذات البين [٧] ، والرحمة بالناس رحمة تشمل الصديق والعدو إن وقع في ضيق [٨] ، واستعمال الحيلة للتخلص من المآزق الحرجة [٩] ، ومداراة من يُخاف بطشهم ، وحسن معاشرتهم اتقاء لشرهم [١٠] ، وعلى المرء ألا يعمل ما

---

(١) انظر الرحلة الأولى ص (١٤) .

(٢) انظر الرحلة الأولى ص (١٦٢ - ١٦٤) .

(٣) انظر الرحلة الثانية ص (٣٢ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٤٧) .

(٤) انظر الرحلة الأولى ص (١٥٩) .

(٥) انظر الرحلة الثانية (١٢٩) .

(٦) انظر الرحلة الأولى ص (٢١ - ٢٣) ، ٤٧ ، ٧٥ ، والثانية ص (٣٦ - ١١٧ - ١٢٦) ومجلة سندباد السنة الثالثة ع ٣٩ الرحلة الثالثة ص (١٣ - ١٤) والرحلة الرابعة ص (٧٨ - ٧٩ - ١٨٥) .

(٧) انظر الرحلة الأولى ص (١٦٧ - ١٦٨) ، والثانية ص (٣٦ - ٦٩) .

(٨) انظر الرحلة الرابعة ص (١١٩) .

(٩) انظر الرحلة الأولى ص (٤٤ - ٤٥ - ١٠٧) .

(١٠) انظر الرحلة الأولى ص (٣٩ - ٤٢ - ٦٣ - ١٠٧) .

عـاب الآخرين عليه [١] ، وألا يشتغـل فيما لا يعنيـه [٢] ، وأن ينـدم عـلى ذنوبه ، ويعترف بنقصه وضعفه إن أحس بذلـك [٣] ، وأن يفي بالوعد [٤] ، ولا يـرائي أمام الآخرين ، ولا ينكـر ، أو يكـذب ، أو يحسـد غـيره [٥] وأن يتحلى بالأمانة والحياء والعفة [٦] وأن يتجنب العناد لأنه من أسوأ الطباع [٧].

وللصداقة أهمية كبرى في مجتمع الرحلات ، فالصديق أخ ودود يؤتمن على أسرة صديقه في حـال غيابه فيقضي لهـم حـاجـاتهم ، ويذكره كلما حـانت مناسبـة لذلك ، ويدفع عنه شر الأعداء حتى ولو كلفه ذلـك التضحية بدمه ، ويعينـه وقت الشدائد ، ويحـافظ على أمواله ويثمرها لـه في غيابه ، ويتـمنى لـه الموت إذا مـا غدا سخريـة الآخرين ولكنه مع ذلك يحزن إن وقع بـه قضاء الله المحتوم [٨] .

أمـا أوضاع المحاكم والقضاء والسجون فقد تعرض لها الأديب في رحلته الرابعـة وبـيّن خلالهـا المساوئ في هـذه الأجهـزة الحكوميـة ، والأخطـاء التي يرتكبها القضاة ، والتي تـودي أحيانًا بحياة الأبرياء ، والمظالم التي يتعرض لها السجنـاء [٩] ، ولكنهـا إلى ذلـك بيّنت أن الشر عاقبتـه وخيمـة مهـما طال أمـده فإن يومًا يأتي ينجو فيه الأخيار ، ويتغلبون على أعدائهم الذين كادوا لهم [١٠] .

---

(١) انظر الرحلة الأولى ص (١٠٩) .

(٢) انظر مجلة سندباد السنة الثالثة الرحلة الثالثة ع ٤٣ ص (١٣ - ١٤) .

(٣) انظر الرحلة الثانية ص (٩٦ - ١١٩) .

(٤) انظر الرحلة الثانية ص (٩٦) .

(٥) انظر الرحلة الثالثة ص (٦٣ - ٦٥) ، والرابعة ص (١٣ - ١٩ - ٢٢) .

(٦) انظر الرحلة الثانية ص (٣٠ - ٤٣) والرابعة (٨ - ٨٣) .

(٧) انظر الرحلة الثالثة ص (٩٦) .

(٨) انظـر الرحلة الأولى ص (١٦ - ١٣٧ - ١٧٧ - ١٩٣ - ٢١٠ - ٢١١) ، والثانيـة (١١٩ - ١٢٣) ، والرابعة ص (٨٢ - ٨٥ - ١٢٨) .

(٩) انظر الرحلة الرابعة ص (٢٩ - ٣١ ، ٣٩ ، ٤٨ ، ٥٤ ، ٥٥) وفصل البراءة ص (٥٦) .

(١٠) انظر السابق .

وكنز الأموال والأحجار الكريمة تحت القصور أو الدور أمر معروف ، ويوضع الكنز عادة في مكان مأمون لا يتوصل المرء إليه إلا بعد أن يهبط سردابًا محفوفًا بالمخاطر والأهوال ، ينتهي إلى أبواب لا تفتح إلا بحيلة (١) أو إلى بحر عميق ذي شعاب صخرية حادة ، ويتعرض من يجازف من أجله إلى الموت في معظم الأحيان (٢) ، وقد تكون هذه الكنوز جواهر وأثاث ملك قديم مات بغتة ثم هجر خلفاؤه القصر من بعده دون أن يعلموا ما يُخبّأ تحته ، حتى إذا ما تقادم العهد عليه خربت الدور ، وملئت الأغوار بالرمال وغُطي القصر ، وغدا أنباءً يتناقلها الرواة جيلاً بعد جيل (٣) .

وقد تكون ثروة لرجل أشفق عليها من الضياع فحفظها في صندوق أودعه سردابًا تحت داره ، وجعل الطريق إليه صعب المسالك ، مستورا عن الأعين ، لا يعرفه إلا هو أو من أطلعه عليه (٤) .

وتنتشر في هذه المجتمعات ، ولا سيما البدائية منها كما في جزر المحيط الهندي التي يدين أهلها بالمجوسية والبوذية ، وكذا عند القبائل والبداة ، - أحاديث خرافية عن الدجل والكهانة ، وتقديس البشر ، وقدرة الجن على مسخ الإنسان حيوانًا كان أم جمادًا ، ثم إعادته إلى سيرته الأولى بعد زمن قد يطول أو يقصر (٥) على حين يبقى المسلم الواعي نيّر الفكر ، بعيداً عن الإيمان بهذه الخرافات ، بل ويعمد جهد المستطاع إلى توضيح الحقيقة لهؤلاء الجهلة الغافلين الذين يؤمنون بهذه الشائعات والأباطيل ، مسلمين كانوا أم غير مسلمين (٦) .

---

(١) انظر الرحلة الأولى ص (٤٦ - ٥٢) ، والثالثة ص (٩٨ - ٩٩) .

(٢) انظر الرحلة الأولى ص (٤٧) .

(٣) انظر الرحلة الأولى ص (٥٧) .

(٤) انظر الرحلة الرابعة ص (٦٥) .

(٥) انظر مجلة سندباد السنة الثالثة ع ٢٧ الرحلة الثالثة ص (١٣ - ١٤) .

(٦) انظر المرجع السابق ع ٢٨ ص (١٣ - ١٤) ، وع ٢٩ ص ١٣ - ١٤ ، وع ٣٠ ص ١٣ - ١٤ .

٣- الأفكار العلمية :

وردت في القصة نبذات علمية ورودًا عابراً متناثراً هنا وهناك ، إلا أن لها أهميتها العلمية والاجتماعية ، إذ تعرف على مدى الحضارة التي وصلت إليها هذه الشعوب ، فالطب في عدن لازال بدائياً ، وكذا طرق فحص المرض ، ويقوم عليه أطباء يهود من صنعاء [١] ، والأقوام البدائية كالهنود المجوس لا يدرون كيف تتولد النار من الحجارة ، ولم يروا نور الكهرباء قط في حياتهم [٢]، وللملوك والأمراء آداب في المعاشرة ، وهؤلاء وحاشيتهم يستعبدون الناس قسراً [٣] .

وهناك معلومات جغرافية كالحديث عن البلدان والمدن مثل البحرين [٤] ، وبغداد وبساتينها [٥] ، والصحراء التي تجوبها القوافل ، وخط الاستواء وظواهره المناخية [٦] ، والبحار وأهوالها [٧] ، والجزر والمد [٨] .

وصحية كالحديث عن طريق الإسعافات الأولية للمغمى عليه [٩] ، وصنع الجبيرة [١٠] ، وعن أهمية الهواء النقي في شفاء المرضى [١١] ، وكذلك السباحة [١٢] ، والنظافة [١٣] .

---

(١) انظر الرحلة الثانية ص (١٨٢ - ١٨٤) .
(٢) انظر الرحلة الأولى ص (٩٦) .
(٣) انظر الرحلة الأولى ص (١٥٣ - ١٥٤) ، والثانية ٦٧ - ٦٨ - ٩٤ .
(٤) انظر الرحلة الثانية ١٤ - ٣٧ - ٤٠ .
(٥) انظر الرحلة الأولى ص (١٧ - ٢٦) .
(٦) انظر الرحلة الأولى ص (٨٤).
(٧) انظر الرحلة الثانية ص (٤٨ - ٥٥) .
(٨) انظر الرحلة الرابعة ص (١٠٦ - ١٢٧ - ١٢٩) .
(٩) انظر الرحلة (١٨٦/٢) .
(١٠) انظر الرحلة (٤٢/١) .
(١١) انظر الرحلة (١٨٦/٤) .
(١٢) انظر الرحلة ا(٥١/٢) .
(١٣) انظر (٣٩/١) .

وهناك معلومات عن الحيوانات ، ولا سيما الكلب ، فهو وفي ينجد صاحبه إبان الشدائد ، قوي حاسة الشمّ ، وذو مقدرة فائقة على السباحة [١] والذئب حيوان مفترس [٢] ، ومثله الضبع [٣] ، والنوق سفينة الصحراء وهي تعرف مجاهلها [٤] ، والوحوش تأوي إلى المغارات [٥] ، والحشرات تحتمي بالصخور ، والخشب يطفو على سطح الماء [٦] ، والحبال تصنع من ألياف الشجر والحبال .

وللمعاملات المالية قانون يحكمها بأن تكتب عقود المبايعات تجنبًا للأضرار وعواقبها .

أما الناحية الوطنية فقد وردت على قلة ، وتناولت الرحلة الثالثة معظم الحديث عنها حين تحدثت عن حب الوطن ، وضرورة الدفاع عنه بالمال والنفس ، ومقاطعة العدو ، والإيقاع بالجواسيس والعيون ، وهذا كله يعد جهادًا في سبيل الله ، أما اليهود فهم قوم شرهون إلى المال .

كما بينت الرحلة الرابعة أن النصر حليف الشجاعة لا القوة ولا العدو.

ب- *خرافات وعجائب وخوارق* :

القصة في أجزائها الأربعة تحوي أحاديث خيالية تأثر فيها الأديب بما كتبه القدامى عن رحلاتهم في البر والبحر ، وبحديث سندباد في ألف ليلة وليلة ، وبحي ابن يقظان لابن الطفيل ، ثم أضاف إليها من بنات أفكاره ، فغدت جديدة أو كالجديدة في مضمونها ومعناها .

---

(١) انظر (١/٦٧ - ١٣١ - ١٥٠) و (٢/١٧٨) ، ولا تكاد تخلو صفحة تقريبًا من الحديث عن كلب سندباد نمرود .

(٢) انظر (٤/١١٨) .

(٣) انظر (١/٥٢) .

(٤) انظر (٣/٧٥ - ٧٦) .

(٥) انظر (٢/٢٨) .

(٦) انظر (١/٩٠) .

ومن هذه الخرافات والعجائب حديثه عن النسانيس في رحلته الرابعة، فهي مخلوقات ليست من الأنس ولا من الجن ، ولا من الحيوانات ، ولكنها نسانِيس ذات أجسام طويلة نحيلة مبطوطة ، كما ذكر ، كأنها شق نخلة ، وعلى الرأس المتطاول شعر كريش الهدهد ، وبه عين واحدة ، وفم مشقوق من أعلى إلى أسفل ، ولكل منها يد واحدة ، ورجل واحدة في الأسفل يقفز بها قفزًا على قدم كخف البعير ، لا أصابع فيها ولا حافر ، وصوتها كصوت الإنسان [١] ، وتفهم ما يقوله . ولها عادات وتقاليد خاصة منها أنهم يأكلون لحوم البشر [٢] ، وأنهم يؤمّرون قاتل رئيسهم ولو كان بشرًا [٣] ، ويقومون بأعمال تحاكي أعمال الإنسان كالرمي بالقوس والسهام [٤] ، ويتمتعون بمقدرة على حل الأزمات بتفكير وتدبير [٥] . وهناك خرافات أشبه بالحقيقة ، أو يمكن حدوثها على ندرة نادرة ، فهلهال في الرحلة إنسان حملته أمه الجعفرية صغيرًا ، وسافرت به بحرًا

---

(١) انظر (١٣٧/٤) وقد ذكر ابن قتيبة في عيون الأخبار ، نقلاً عن كتاب الحيوان للدميري (ج ٢ ص ٤١٥) حكاية رواها ابن إسحاق : (النسانيس خلق باليمن لأحدهم عين ويد ورجل يقفز بها ، وأهل اليمن يصطادونهم ، فخرج قوم في صيدهم فرأوا ثلاثة نفر منهم ، فأدركوا واحدًا فعقروه وذبحوه ، وتوارى اثنان في الشجر ، فقال الذي ذبحه ، إنه لسمين ، فقال أحد الاثنين (أي نسناس) إنه أكل ضرْوا «حبة خضراء» فأخذوه فذبحوه فقال الذي ذبحه : ما أنفعَ الصمتَ ! قال الثالث (أي النسناس) : فها أنا الصَمِّيتُ فأخذوه فذبحوه ، وعلى هذا فهي ليست مخلوقات خرافية ، وإنما هي مخلوقات عجيبة ، ولكنّ ابن إسحاق لا تصدق روايته دائمًا على نحو ما عرف في سيرته ، وربما تأثر العريان بما أورده من الصفحات ومِنْ تكلمها تكلم الإنسان فأوردها في قصته وذكر ابن قتيبة في موعظة للحسن البصري يقول «لقد صحبت أقوامًا كانت صحبتهم قرة العين وجلاء الصدور وكان من حسناتهم أن ترد عليهم وهم أشفق منكم من سيئاتكم أن تعذبوا عليها ... إني أسمع حسيسًا ولا أرى أنيسًا . ذهب الناس وبقيت في النسناس لو تكاشفتم ما تدافنتم ... يا بن آدم يا بن آدم إن دين الله ليس بالتحلي ولا بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل» ، وربما كان لهذه المخلوقات وجود ثم انقرضت بعد ، كحيوان الديناصور المكتشف . «المؤلفة» .

(٢) انظر (١٤٣/٤) .

(٣) انظر (١٦٧/٤ - ١٧١) .

(٤) انظر (١٥٧/٤) .

(٥) انظر (١٦٤/٤) .

إلى زوجها بالمدينة المنورة ، ورمت بها المقادير إلى شاطئ في المحيط الهندي على لوح خشب مع صغيرها الرضيع فأوت به إلى مغارة آملةً أن تجد مركبًا يقلها إلى موطن آمالها ، ومرّت الأيام ، ودرات الشهور ، وهما ينتظران ، ثم وافاها الأجل بعد أن خلّفت طفلاً لا يعي حادثة ، ولا ينطق لفظًا ، وحقيبة ثياب ، وأوراقًا بالية أودعتها سيرتها ، وعاش هذا الصغير وحيدًا فى الغابة ، فاستأنس وحوشها ،وقلّدها فى سيرتها وسيرها ، حتى غدا شبيهها لدرجة أنه صعب على سندباد والجعفري أن يعرفاه إلا بعد تفحص وتمحّص بعد أن حسباه وحشًا من وحوش الغابة [1] .

ومن ذلك أيضًا حديثه عن الغيلان الذين يحاكون الوحوش بطول شعورهم ، ويأكلون لحوم الإنسان وهم يقطنون في المحيط الهندي أيضًا [2] .

وكذا ما حكاه لنا عن ملك الجبل في رحلته الأولى [3] ، وعن جزيرة المخدرات في رحلته الثانية [4] .

وهناك أعمال خارقة تقوم بها شخصية من شخصيات القصة ، من ذلك العراكُ الذي نشب بين هلهال وأسد الغابة ، إذ التحما جسدًا لجسد لا يعرف لهما ظهر من بطن ، كانا يثبان معًا ، ويقعان معًا على حد قول المؤلف ، ثم تمكن هلهال أن يصرع خصمه على الرغم من أنه فجأه على غرة ، ولم يكن له عهد بصراع السباع من قبل ، وقد اتخذ من جلده لباسًا يواري جسده بعد أن مزق الصراع ثيابه [5] .

* * *

---

(١) انظر (١/١٠٦- ١٠٧) .

(٢) انظر مجلة سندباد السنة ٣ ع ٤٩ الرحلة (١٤/٢ ، ع ٥٠ الرحلة ١٣/٣ - ١٤ .

(٣) انظر (٣٧/١ - ٥٢) .

(٤) انظر (٥٨/٢ - ٧٤) .

(٥) انظر (١٣٣/١ - ١٣٦) .

ومن الخوارق أيضًا حديثه عن الجن الذي تمسخ البشرَ حجارةً على هيئة حيوانات ، وتخطف الناس ، وتخفيهم عن أعين أهليهم [1] .

٥- مصادر متوقعة لهذه الرحلات :

لم يشر الأديب إلى مصدر ما استقى منه مادته ، أو استضاء به ، ولئن كان خياله الواسع قد أمدّه بكثير من المادة ، فإنه مما لا شك فيه أنه اطلّع ، ومن ثَمَّ استفاد من كثير من الكتب العربية القديمة والحديثة التي تحدثت عن الرحلات أو ما يتعلق بها ، وأول ما يؤكد هذا الاسمَ الذي سمي به بطل رحلاته الأربع «سندباذ» ، ويمكن أن أستأنس للدلالة على ذلك بما ردّ به هو على الدكتورة بنت الشاطئ حينما طلبت منه أن يجمع ما اطلع عليه من معلومات تؤيد سبق المسلمين إلى اكتشاف القارة الأمريكية إذ بيّن لها أنه كاتب قصة ، وليس عالمًا باحثًا ، والقصصي لا يطالب بذكر مراجع ، ثم سرد لها أسماء كتب عربية قديمة تتحدث عن اكتشاف العرب لأمريكا قبل خريستوف كولمبس منها أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي ، ونزهة المشتاق في اختراق الآثار للإدريسي ، والمسالك والممالك لابن حوقل ، وكثير غيرهما مما يتحدث عن رحلة العرب عبر المحيط الهندي والأطلسي ، وإلى بلدان متعددة [2] ، ولقد وصف هؤلاء الرحالة والجغرافيون الطرق التي مرّوا بها ، وقدّموا لقرائهم كما يقول الدكتور شوقي ضيف صورة للمجتمعات التي اطلعوا عليها ، حتى صار علم الجغرافية عندهم أشبه برحلات قيدوا فيها مشاهداتهم ، وما وقع تحت أبصارهم من أحوال والناس والعمران ، وقد أدخل إلى بعضها مادة خيالية ترضي القراء بما تحويه من حديث عن عجائب المخلوقات ، وغالى بعض المؤلفين في الحديث عن هذه العجائب ، من هؤلاء القزويني في كتابه «

---

(١) انظر مجلة سندباد . السنة ٣ ع ٢٧ الرحلة (١٣/٣ - ١٤) .

(٢) انظر جريدة الأهرام ١٤/٤/٩٦١ ع ٢٧١٥٢ ص ١٣ : ما كتبته الدكتورة بنت الشاطئ ، ورده عليها في الجريدة نفسها في ١٢/٥/٩٦١ ع ٢٧١٨٠ ص ١٣ .

آثار البلاد وأخبار العباد» وابن الوردي في «خريدة العجائب» ، وابن وصيف شاه في «مختصر العجائب» والدميري في كتاب العجائب ، والبيروني في كتابه «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مزدولة» والأخير مليء بالخرافات والأساطير والعجائب ، والعبادات الهندية ، وما يؤمن به البراهمة وقدّيسوهم . وبالحديث عن القرابين التي تقدم بين يدي أصنامهم ، وعما يبيحونه من المطاعم والمشارب [1] .

بل لقد صار من المألوف لمن يصف أطراف المعمورة والجزر البعيدة في المحيط الهندي من القدامى أن يشتط به الخيال ، فيتحدث ، كما ذكر حسين فوزي ، عن شعوب آدميين وأنصاف وأرباع آدميين ، وعن جزر أهلها من العراة يأكلون لحوم البشر أحياء ، وأناس لهم رؤوس حيوانات ، أو نسانيس خلقوا على هيئة شق واحد طولي لإنسان [2] .

ومن الطبيعي وقد صرّح العريان بقراءته هذه الكتب ، أن يتأثرها فيتحدث مثلها عن النسانيس ، وعن الأقوام شبه العراة ، وعن الديانات الهندية والبوذية وطقوسها ، وعن الغيلان ، وغيرهم .

وهناك إلى ذلك كتاب «ألف ليلة وليلة» وهو متداول منذ عصر العريان ، وقد ضمَّ بين طياته قصص السندباد البحري التي ذُكر فيها كثير من العجائب والخرافات كالحديث عن جزيرة الكافور ، وجزيرة الماس ، وعن الكنوز ، وأخطار البحار [3] .

وتسمية الأديب كتابه «رحلات سندباد» يدل على تأثره ، وكذلك ما حكاه في مقدمة القصة الأولى وهو أن سندبادًا عصريًا من نسل السندباد

---

(١) انظر كتابه الرحلات ص ١٢ - ٢٦ ، ٦٦ .

(٢) انظر حسين فوزي : حديث السندباد القديم ص (٤٢) . وربما كان هناك مخلوقات هكذا كما ذكر ابن قتيبة في عيون الأخبار وأوردت ذلك إبان الحديث عن الخرافات والعجائب .

(٣) انظر سهير القلماوي : ألف ليلة وليلة ص (٤٦) ، وقصة مغامرات السندباد البحري ص (٢١) .

البحري عاش في بغداد وكان جده وأبوه تاجرين [١] يدل على اطلاعه على هذا الكتاب القديم ، وكذلك حديثه عن جزيرة المخدرات التي تشبه جزيرة الماس والكافور في قصة مغامرات السندباد البحري ، فلقد جمع - كما أرى - في «جزيرة المخدرات» في رحلته الثانية فكرة اللآلىء من جزيرة الماس إلى فكرة المخدرات من جزيرة الكافور ، وكان منه فصله المذكور الذي أحسن فيه سبك الخيال المستمد إلى الخيال المبتكر [٢] .

وكذلك شأنه في الحديث عن الكنوز والأخطار التي يتعرض لها المسافرون في البر والبحر ، ولقد حكى لنا حسين فوزي في كتابه «حديث السندباد القديم»أن مسافرين ومعهم السندباد البحري كانوا في جزيرة وسط البحر - وإذ بها تتحرك - ثم عرفوا أن هذه الجزيرة سمكة كبيرة رسا على ظهرها تراب ، ونبت شجر وعشب حتى بدت كأرض من الأراضي ، وقد نجا السندباد من الغرق بأن تعلق بقطعة خشب بعد أن قاسى الأهوال الجسام ، ورأى الموت يمثل أمام عينيه قبل أن ترمي به الأمواج على بر استلقى عليه ، وظلّ مطروحًا حتى صباح اليوم التالي ، ثم قام يسعى في مناكب الأرض باحثًا عن رزقه [٣] ، وهذا الحديث يشابه ما أورده مؤلف الرحلات في أولاها فقد ذكر أن عاصفة بحرية هوجاء شقت السفينة ، فغمرتها مياه المحيط وانقلب عاليها سافلها ، فتعلق سندباد بقطعة خشب من مخلفات المركب حتى وصل جزيرة لا ناس فيها ، وكان منهوك القوى فتمدّد فترة أغمي عليه خلالها ثم أفاق ليبحث عن طعام وشراب [٤] .

---

(١) انظر (٧/١) .

(٢) انظر الرحلة (٥٨/٢) : جزيرة المخدرات ، ومغامرات السندباد البحري ص (٢١) ، وألف ليلة وليلة ص (٤٦) .

(٣) انظر حديث السندباد القديم ص (٢٦٢ - ٢٦٣) ومغامرات السندباد البحري ص (٢٢ - ٢٣) .

(٤) انظر (٨٨/١ - ٩٤) ، و (٤٨/٢ - ٦٢) ، ولا فرق بين أن ينجو بقطعة خشب في رحلته الأولى، وبطوق نجاة في الثانية ، فالفكرة واحدة ، وإن اختلفت الوسيلة .

أما العملاق الذي يأكل البشر أحياء في مغامرات السندباد البحري فهو يشبه ملك الجبل ، وهلهال اللذين حكى عنهما العريان في رحلته الأولى ، والغيلان في الثالثة [1] .

وما ذكره العريان عن إطعام الإنسان الذي يعثر عليه آكلو لحوم البشر حتى يسمنوا ، وسجنهم في مكان منعزل حتى يحين أوان افتراسهم يماثل ما ذكره مؤلف ألف ليلة وليلة عن السندباد البحري الذي سجن عند قوم يطعمون السجين حشيشة تفقدهم رشدهم وتجعلهم كالبهائم ، ثم يرعونهم كما ترعى السوائم ليسمنوا ، ثم يأكلون لحومهم [2] .

على أن ميدان رحلة سندباد الأولى والثانية كان معظمه فى المحيط الهندي ، وهو المحيط الذي كثرت عواصفه ، وتنوعت أخطاره ، وتعددت جزره ، وتحدث عنه التاجر سليمان كما ذكر الدكتور شوقي ضيف في كتابه الرحلات ، فقد وصف الطريق البحري الذي يصل بين البلاد العربية والهند والصين ، وما يشاهده المرء من جزائر يحوي بعضها معدن الجوهر الموجود في جبل الرهون ، ويسكن بعضها أحياء سود مفلفلو الشعور ، مناكير الوجوه والأعين ، كما تحدث عن العواصف الشديدة في هذا المحيط وأضرارها على السفن وراكبيها [3] .

وأرجح أن أديبنا استقى كثيرًا من مادته في وصف جزيرة المخدرات التي تحوي جواهر وذهبًا ، وعطرًا مخدّرًا ، وفي وصف الغيلان ، والعواصف البحرية التي تهب في المحيط الهندي مما ذكره هذا التاجر في رحلته ، ومن كتاب ألف ليلة وليلة ، وغيرهما من الكتب التي بحثت في موضوعه مما ذكرته أو لم

(١) انظر مغامرات السندباد البحري ص (٢٩٠) و ١/(٣٦ - ٤٥) ، (١٠٥ - ١١١) ، ومجلة سندباد السنة الثالثة الرحلة ٣ ع ٥٠ عن الغيلان ص (١٣ - ١٤) .

(٢) انظر الرحلة (١٤٣/٤) ، مغامرات السندباد البحري ص (٢٩٠ - ٢٩١) .

(٣) كتابه ص (٣٠ - ٣١) والرهون اسم جبل في بحر الهركند ، وهو جزء من المحيط الهندي بين جزيرة سرنديب (سيلان أو سيريلانكا) وخليج بنغالة (البنغال) انظر التفسير ص (٢٩) .

أذكـره (١) .

إضافة إلى ذلك أرى أن أديبنا قرأ كتاب «حي بن يقظان» لابن طفيل الأندلسي ، الذي يتحدث عن نشأة الإنسان حديثًا يشابه ما حكاه العريان عن هلهال في رحلته الأولى ، وإن كانت مادة ابن طفيل ترمي إلى غرض فلسفي ديني ، على حين ابتغى الآخر غرضًا توجيهيًّا يناسب عقول الصغار ويسليهم .

فابن يقظان في «حي بن يقظان» عاش في جزيرة في المحيط الهندي ، وقد حمله إليها تيار بحري في تابوت أحكمت أمه إغلاقه ، فقذفه الموج إلى أجَمَةٍ ملتفة الشجر ، مستورة عن الرياح والأمطار ، محجوبة عن الشمس ، وهناك سمعت صوتَه غزالةٌ فقدت رضيعها فأتت إليه ، ومازالت تعالج الصندوق حتى فتحته بعد أن كانت مساميره قد اضطربت ، ثم حدبت عليه ، وألقمته ثديها، وأخذت تدفع عنه الأذى ، حتى نما ، واشتد عوده يومًا بعد يوم ، وأنس حيوانات الجزيرة وألفته ، وقلّدها في نطقها وتصرفاتها ، ثم اتخذ من أوراق الشجر كسوة تغطي بدنه ، وتعوّضه عن أوبار الحيوانات وأشعارها وريشها ، وأخذ يفكر في الخالق والمخلوقات حتى قيّض الله رجلاً له يدعى «أَبسال» قدم من جزيرة مجاورة معتزلاً الناس ، فلما رأى ابن يقظان ظنه عابدًا منقطعًا لعبادة الله ، أما حيّ فإنه لم يدر حقيقة هذا المخلوق لأنه لم يقع بصره على إنسان قط ، ورآه أشبه المخلوقات به فتبعه ، فولّى أبسال هاربًا ، فلحقه وتقرّب إليه وصار يحاكيه ، فلم يع كلامه ، ومرت فترة أنس بعدها كلٌّ صاحبه وعلّم أبسال حيًّا الكلام وعرّفه على الخالق ووظيفة المخلوق (٢) .

* * *

(١) جزيرة المخدرات في الرحلة (٢/٥٨) ، والغيلان في مجلة سندباد السنة ٣ ع ٥٠ ص (١٣ - ١٤) ، والعواصف البحرية في (١/٨٨ - ٩٤) ، و (٢/٤٨ - ٦٢) .

(٢) انظر أحمد أمين : حي بن يقظان لابن سينا وابن الطفيل والسهروردي ص (١٠ - ٢٢) ، (٣٠-٣١) ، (٦٢-٦٣) .

هذه القصة تشبه في كثير من أجزائها ما أورده العريان عن هلهال في رحلته الأولى ، فلقد ذكر أن أمه في طريقها بحرًا إلى المدينة المنورة قذفت بها وبصغيرها الأمواج إلى جزيرة فلجأت إلى مغارة - وماتت قبل أن تتاح لها فرصة العودة وكان صغيرها لم يتعلم النطق بعدُ ، ولم يأنس بشرًا ، فعاش مع حيوانات الجزيرة ، وقلّدها في حياتها ، وأصواتها ، وطباعها ، ومشيتها ، واكتسى بفروع الشجر ... فلما قدم سندباد وصاحبه حسباه وحشًا من الوحوش ثم شَكّا في حقيقته ثم تفرّسا خلقته فعرفاه فآنساه وعلّماه المشي فالكلام، والقراءة والكتابة حتى غدا مخلوقًا كغيره [1] .

مما سبق أرجح أن العريان استقى من الكتب السالفة كثيرًا من أفكاره ثم أضاف إليها من ثقافته وخبراته ، وأمده خيال القاص وتصوير الأديب بالكثير حتى استوت رحلاته ، جديدة أو كالجديدة في مادتها وصياغتها ، منسقة تنسيقًا فنيًا يدل على موهبة فذة ، ولا عجب فقد كتب رحلاته في أواخر حياته ، بعد أن نضجت قريحته ، ونمت ثقافته ، واتسع أفقه . وخطتها يمينه على مَهَل وروية ومكّنه من ذلك نشره لها في حلقات مسلسلة في مجلة سندباد كما أسلفت .

٦- *العمل القصصي* :

الرحلات قصص أو قصة مجزأة ، ألفت للأطفال ، وأفاضت في الحديث عن الواقع ، وفي سرد حوادث ومغامرات خيالية لا يقبلها عقل مستنير .

تبتدئ أولاها بمقدمة عرّف فيها الأديب بالسندباد المعاصر . وقرابته من السندباد البحري الذي تروي الأساطير حكاياته ، ثم انتقل إلى الحديث عن الموطن الذي ابتدأ منه سندباد الرحيل ، وعن أسرته ، وبيّن أسباب الرِّحلة .

* * *

---

(١) انظر الرحلة (١/١٠٦ - ١٢٨) .

أما مقدمة الرحلات الثلاث فإنها تبتدئ بوجيز يعيد ما سبق بصفحة أو أكثر فيهيئ الأذهان للرحلة الجديدة ، كأن يذكر فرحة سندباد بعودته إلى موطنه ، واجتماعه بأسرته ، وكتمانه رغبته في رحلة جديدة ، ثم خروجه إليها مع الفجر ، وقبل أن يفيق النائمون (١) ، أو يجعله يتحدث عن عدم لقيا أبيه في المكان الذي أخبر أنه أحلّه ثم يسمع خبرًا ينشطه للسعي (٢) ، أو يصوره قد ملّ البحث وودّ القرار في الوطن لولا نبأ طارق في رسالةٍ حثته على المسير (٣) .

وهذه المقدمات جميعًا تشوق القارئ إلى متابعة تيار القصة ، وهو يرجو لسندباد الخلاصَ من المآزق الحرجة التي تمر عليه فتحول دون بلوغ مآربه ، ولكنه مما يؤخذ على مقدمة الرحلة الأولى ، أو على الباعث الأول للرحلات أنْ جعلَ الأديبُ سندباد يتسمع لأول مرة أخبار أبيه ، بل تطرق مسمعيه للمرة الأولى في حياته كلمة الأبوة تجري على لسان عمته التي حضنته وأخته بعد وفاة أمهما (٤) ، وكأن الأديب تغافل عن الدافع الفطري الذي يدفع المرء إلى السؤال عن أبيه منذ نعومة أظفاره ، ولا يمهله حتى الخامسة عشرة من عمره ، ومن هنا بدا التكلف واضحًا ، ولو أنه جعل العمة تكتم أو تماري في الحديث عن أبيه علّ الصغير يكبر فيعلم لحالفه التوفيق ، ولكان الباعث أنشط وأشد جذبًا للقارئ الطفل . على أن مقدمات القصص الأخرى كانت أكثر تشويقًا وتهيئة للأذهان لمتابعة الحوادث . وتتعدد الحوادث بعد هذه المقدمات تعددًا يصعب على القارئ الطفل أن يتذكرها جميعًا إلا إذا قرأ الرحلة مرات عديدة ، لكنها مع ذلك مرتبطة بروابط محكمة تجعل لكل موقف سببًا يؤدي إليه ، ويوصل بدوره إلى آخر ، وهكذا يسير القارئ مع مسيرة القصة ، وهو شغوف بحوادثها،

---

(١) كما في الرحلة الثانية .

(٢) كما في الرحلة الثالثة .

(٣) كما في الرحلة الرابعة .

(٤) انظر الرحلة (٩/١) .

يعجب تارة ويذهل أخرى ، ويضيق صدرًا بمكر الماكرين ، ويندم مع النادمين، ويتمنى للمستغيث النجدة والخلاص ، إلا أن هذا لا يمنع من وجود ثغرات تؤثر تأثيرًا طفيفًا على سببية الحوادث ، فليس من المعقول أن يسلّم سندباد في رحلته الرابعة أربعمائة دينار لصاحب الفندق خوفًا من السارقين دون أن يستلم منه وثيقة تثبت حقه ، ثم كيف يقوم سندباد على ملأ من الناس بتغيير اسم الفندق ، واسم مالكه ، وتوسيع بنائه ، وتغيير أثاثه وهو لم يملكه بعد ، ولئن كان في حسبانه أنَّ سرقة دراهمه تدفعه إلى هذا فإن الأمر لا يكفي في عصرنا هذا ، ثم ألَمْ يره أخو المغتصب صاحب الفندق يغير هذا كله ، ويطالبه بما طالبه به إلا بعد أن انتهى من أعماله كلها ! [1] . وقد حدث له هذا كله وهو لا ينوي الإقامة في هذه الديار لأنه كان قد أزمع على السفر إلى البحرين حيث أباه كما أخبر ! [2] ألأن الفندق يأتيه غرباء كثيرون يمكنه سؤالهم من التعرف على أبيه ، أو على من يعرفه ، وقد تأخر عن الوصول إلى البحرين [3] ؟ لا يكفي هذا برأيي وأرى أن عليه أن يجعل سببًا آخر يدفعه إلى رحلته الرابعة غير رسالة خال أخته ، ولئن فعلها فإن عليه أن يتابع مسيرته حيث يلقى أباه مهما كانت المعوقات .

ليس معنى ما ذكرت أن البواعث كانت غير موفقة ، لأنها عامة في جزئياتها وكلّياتها تتآزر في نسيج محكم ينمو بالقصة رويدًا رويدًا إلى الذروة ثم ينحدر بها إلى الخاتمة .

وتختلف ذروة كل رحلة ، ومكان حدوثها عن الرحلات الأُخر ، وكذا مدى الهدوء الذي يصاحبها في تقهقرها وانسيابها إلى الخاتمة .

* * *

---

(١) انظر تفصيل هذا في الرحلة (٤/١٧ - ٢٧) .

(٢) انظر (٤/٨) .

(٣) انظر (٤/٢٠) .

ففي الرحلة الأولى يجعل المؤلف سندباد يرى أباه ولا يعرفه ، ويخلّصه من الأسر عند الهنود ثم تناجيه نفسه وتحثه على سؤاله عن هُوِيَّتِهِ ، ويكاد يبلغ مراده وتخفق القلوب فرحًا ، وفجأة يعود سندباد ليرى مركبًا يقلّ رفاق أبيه ، ويرى والده يلقي بنفسه إلى الماء بعد أن يخلع ثيابه ، وينادي رفاقه وهو يلفظ اسمه «شهبندر» ، وهذا ما جعل سندباد يحزن أمضّ الحزن لفقده ، ولا سيما بعد ما رجح إثر قراءته مخلفاته أنه هو أبوه الذي جاب الفيافي ، وتحمل مرّ العذاب من أجله ، فيمرض ويصاب بالحمى ويهذي ومن هنا كان الانفعال المصاحب لهذه الحادثة انفعالاً قويًا متوترًا إلا أنه غير صاخب ، ومن ثمَّ أخذت الحوادث تتدرج الهوينى حتى الخاتمة حين يتر الله له ولصحبه سفينة تبلغهم ديار أهليهم ، بعدما عرف أن أباه لا يزال على قيد الحياة ، وأن أملاً بلقياه يدفعه إلى رحلة أخرى إلى البحرين علّه يراه فيها بعدما عرف أنه وصحبه تجار بحرانيون .

وفي الرحلة الثانية تأتي الذروة أيضًا قبل نهايتها بقليل متوترة مضحكة في تصويرها حينما يصاب سندباد بالذهول ، وتمرض شمس زاد بالصرعة لصدمة أصابتها وأصابته بعدما عرف كل منهما أن لأبيهما الواحد اسمين هما «شهبندر ، وشاهنامق» ثم تنحل العقدة ، وتسير القصة الهوينى حتى خاتمتها هادئة متزنة تعلو فيها نبرة الحزن مصاحبة بالفرحة الكبرى بلقيا شمس زاد أمها بعد غياب طويل في رقّ قسري ، ثم تعود إلى الهدوء وتعيش الأسرة حياة هانئة باجتماع الشمل .

أما في الرحلة الثالثة فإن الحوادث تتشابك وتتعقد ، وتتعاون مع بعضها لتصل إلى الذروة حين يقع بطلها سندباد أسيرًا في أيدي اللصوص ، ثم ينجو منهم ويرافق قافلة إلى الصومال ، وتسير الأحداث تترى هادئة حينًا ، متوترة حينًا آخر . حتى الخاتمة .

وفي الرحلة الرابعة تأتي الذروة مبكرة عنها في الرحلات الثلاث

السالفات إذ يقع سندباد في قبضة النسانيس بعد أن قتل منهم شرذمة ، وحاول هؤلاء الانتقام منه ثم نجا منهم بمقدم شيخ القافلة ، وقتْله أميرَهم ، وإبادتهم جميعًا إلا واحدًا منهم افتدى نفسه بإطلاعهما على رجل كان هو شهبندر أبو سندباد ، وانتهت القصة باللقاء ، ثم بالعودة إلى الوطن بعد أن سارت الحوادث السابقة إليها مرافقة بانفعال الفرح بالنجاة ، وبقتل الأعداء ، يشوبها الرحمة بهم أن يقتلوا حرقًا وغرقًا ، ولو كانوا هم السابقين إلى البطش والإهلاك .

ومن هنا فإن خاتمة الرحلات الثلاث الأوليات كانت بخلاص سندباد من مآزق حرجة اعترضت سبيل حياته ، وعرضته للموت - إلا الرابعة ، قدمت إلى القراء الأطفال بشرى لقاء سندباد أبيه - وعودتهما إلى الوطن .

***

ولقد اعتمدت حبكة القصص على العناصر الخيالية التي عرفناها [١] ، وعلى عناصر تشويق عديدة منها الألغاز والأسرار التي اتكأت على حب الاستطلاع البارز عند الأطفال ، وقد لاءمت هذه الأسرار حبكة الرحلات وخبرات الصغار ، ومراكز اهتماماتهم ، إذ كانت تعمد إلى أهم حادث فتخفي نتائجه أو مفاتيحه في الوقت الملائم ، ولعل من أهمها كتمان سندباد نبأ المهمة التي يجوب من أجلها طول البلاد وعرضها ، ولا سيما حينما لقي أباه صدفة وسأله عن ذلك لكن سندباد لم يجب ، ولو فعل لانتهت الرحلة من المرحلة الأولى ، بل لو أجاب والده - المجهول بالنسبة إليه - عن أسئلته الموجهة إليه عن ملك الجبل لعرف مراده ، لكنه التوى بالرد ، وكأنه يكتم بذلك نبأ السرداب الذي يحوي كنوزًا عظيمة ، علّه يحظى بها يومًا ، وكذلك فعل للغاية نفسها عندما أنقذ أباه من أسر الهنود : عادا إلى الجزيرة صامتين ، ثم تردد في سؤالِ أبيه عن هويته لولا أنْ خشي مغبة الأمر ، وانتهى اللقاء ولحق شهبندر صحبه وظل

---

(١) انظر الخوارق والخرافات في هذا الكتاب ص ٢٥ .

الأمر مطويًا أمدًا [١] .

ومن أسراره أيضًا تعريفه بالشخصية تعريفًا موجزًا يتضح للقارئ بعدُ ، فهلهال وحش بري كما عرّفه ، له صفات آدمية ، لكن المؤلف شكّك القارئ به حتى أطلعه على حقيقته حين بين له أنه إنسان أرغمته الظروف على هذه الحياة [٢] .

ومن ذلك إخفاؤه القصة التي ترسمها الشخصية لتنجو بنفسها من مأزق، ثم كشفه لها عن طريق الحوادث كما فعل حينما أطلعنا من خلال تصرفات سندباد على خطته للخلاص من الأسر والرق [٣] .

ومن عناصر التشويق التي اعتمدها لحبكة قصته عنصر المفاجأة « فعمارة» صاحب الفندق ، ومغتصب أموال سندباد يظهر فجأة أمام القاضي متهمًا بجريمة ، في الوقت الذي كان يُحكَم فيه على سندباد بالموت بتهمة قتل عمارة نفسه ، وسرقة أمواله [٤] . وكذا المفاجأة التي سببها النسناس الحي بإرشاد سندباد إلى مغارة كان فيها أبوه في جزيرة النسانيس [٥] .

ومن المفاجآت التي يكثر حدوث أمثالها في الرحلات تصويره سندباد مرهقًا بعد سير طويل ينام بسببه نومًا عميقًا يجعله لا يحس بما يدور حوله أو يحاك ضده من مؤامرات ، ثم يصحو على شر متربص ، أو مفاجأة غير متوقعة ، كما في وقوعه في قبضة ملك الجبل في الرحلة الأولى [٦] ، وفي أيدي لصوص في رحلته الثانية [٧] .

---

(١) انظر (١ / ١٨٧ - ١٩٢ - ١٩٤ - ٢٠١ - ٢٠٣) .

(٢) انظر (١٠٦/١ - ١١٢) .

(٣) انظر (١٠٧/٢) وانظر لأسراره كذلك (٤٦/١ ، ٨٣ ، ٨٦ ، ١٦٩ - ١٨٧ ، ١٨٨) ، وغيرها كثير في رحلاته الأخرى .

(٤) انظر (٥٥/٤ - ٥٦) .

(٥) انظر (١٧٩/٤) .

(٦) انظر (٣٧/١) .

(٧) انظر (٣٨/٣) .

على أن الأديب وصل بمفاجآته إلى درجة المغالاة اللامعقولة حين جعل رفاق سندباد يعثرون في صيدهم على صُرَّة مربوطة فيها حديدة قدوم وقبضة مسامية ، ومنشار ، ومصقلة ، أو بتعبير أصح : فيها ما يلزم لصناعة سفينة في الوقت الذي كانوا فيه يفكرون بطريقة لصنع مركب يعودون فيه إلى الديار [(١)] .

وعنصر المفاجأة أحد العناصر التي يتكئ عليها أديبنا في حبكة قصته إرضاءً لذوق الأطفال وميولهم ، وقد كثرت في الرحلة الثانية خاصة من ذلك عثور سندباد على كلبه نمرود بعد أن حال بينه وبينه بحار وصحار [(٢)] ، ومما وفق فيه الأديب رجعة بهرام إلى أهله حينما كان سندباد يوهم أنه قديس يستغيث الإله ليعيده إليهم [(٣)] ، واكتشاف أخوَّة سندباد وشمس زاد [(٤)] .

على أن مبالغات وردت في الرحلات بيَّنتُ بعضها قبلُ إبان الحديث عن الخوارق والخرافات ، كالحديث عن هلهال وعراكه الأسد ولا عهد له بقتاله ، وقطعه حبال سفينة في وثبة واحدة [(٥)] ، ولكن هذه المبالغات تلائم خيال الطفل الذي لا يحتكم دائمًا إلى المنطق ولا سيما أنها مبالغات مقبولة إلى حدّ ما في كثير من أحايينها .

ومما يجذب القارئ إلى متابعة القصة أيضًا إنهاؤه الفصل بسؤال يجيب عنه في فصل يتلوه [(٦)] .

وطريقة السرد الذاتي على لسان إحدى الشخصيات «سندباد» هي الطريقة المتّبعة في الرحلات جميعًا إلا فصلين أورد إحداهما تحت عنوان «جثة

---

(١) انظر (١٨٧/٤) وانظر للمفاجآت أيضًا (١٠٤/١) ، (٩٨/٢ - ٢١٧) .
(٢) انظر (١١٤/٢) .
(٣) انظر (١٣٢/٢ - ١٣٣) .
(٤) انظر (٣١٩/٢) ، وانظر لذلك أيضًا في الرحلة (١٩٥/٢) .
(٥) انظر (٨٦/٢) .
(٦) انظر (١٩٠/١) .

في القاع» [١] بطريقة السرد المباشر «بقلمه» والآخر رحلات «شهبندر» [٢] على لسان شهبندر المذكور وهي سرد ذاتي أيضًا عرض فيه الأب حياته في غيبته. وكنت أرجح أن يعرضهما سندباد نفسه لأنه ذكر في مقدمة رحلاته أنه يحكي لنا ما جرى له فيما سبق من عمره ، وذلك لأن الافتعال الظاهر في هذين الفصلين أخلَّ بفنّية القصة .

وحوادث القصة في أجزائها مقسمة على فصول يبتدئ كلٌّ بما يربطه بالفعل السابق ، وهي تميل إلى القصر إذ لا يزيد أكثرها عن أربع أو خمسة صفحات مما يلائم نشرها في المجلة ، وتبتدئ دائمًا بجملة «قال سندباد» ليوحي لنا الأديب بأن القصة جرت فعلاً وصاحبها يحكي لنا ، إلا الفصلين الآنفي الذكر ؛ ولكل فصل عنوان لم يذكر في المجلة ، وقد أضيف إبان طبع الرحلات، وهي تشير إلى مضمونها ، من ذلك «أمير النسانيس» [٣] العنوان الذي يتحدث فيه عن قتل الجعفري أمير النسانيس وتنصيبه بدلاً منه ، و «رقبة تحت السيف» [٤] تحكي المصير المشئوم لسندباد حين يقدم العيد ، ويقدم رأسه فدية تحت قدمي الصنم بوذا .

٧- الشخصيات :

شخصية سندباد حقيقية في معظمها ، خيالية في بيئات وثنية في المحيط الهندي ، وفي إفريقية وتعد شخصية «سندباد» الأولى في الرحلات الأربع ، وهي شخصية فتى صابر ، يتحمل المشاق الجسام التي لا يقدر على حملها أعتى الرجال وأقواهم ، وهو نشط يتابع بحثه عن أبيه ، يدفعه إلى ذلك أمل باللقاء،

---

(١) انظر (٨١/٤) .
(٢) انظر (١٨٢/٤) .
(٣) انظر (٩٦/٤) .
(٤) انظر (١٢٦/٢) .

وهو إلى ذلك متدين [١] ، طيب القلب ، يؤثر الآخرين على نفسه [٢] ، ويحب الناس جميعًا ، ويصفح حتى عن أعدائه الألداء ، بل ويحاول إنقاذهم مما هم فيه من ضيق [٣] ؛ أبيّ النفس ، لا يرضى الضيم ، ولا يستكين لعبودية [٤] ، ذكي ، يحاول الخلاص من المآزق معتمدًا على الله [٥] ، ثم على اللين والصبر ،وإعمال الفكر والروية ، وعلى الصبر والتجمّل بالهدوء والاتزان والحنكة [٦] ، لكنه مع ذلك يخاف ويحذر [٧] ويغامر [٨] ، وإذا ما انهارت قواه بعد تعب شديد احتاج إلى نوم طويل [٩] ، وقد يمرض إذا ما اعترضته عوامل نفسية طارئة كما حدث له بعدما عرف أن أباه لحق رفاقه في المركب ، ولئن كان ملّ البحث عنه في آخر رحلته الثالثة ، فإنه سرعان ما استجاب لنداء الواجب بمجرد رسالة وصلته تشير إلى إمكان رؤيته عند خال أخته شمس زاد .

ولقد عملت شخصيته على ربط أجزاء الرحلات على تنوعها في مكان حدوثها وزمانه ، وفي انتسابها إلى الواقع والخيال ، وذلك حينما جعل الأديب الحوادث تجري لها ، أو تدور حولها فكانت بذلك كالعمود الفقري تحكم شد أجزاء الرحلات بعضها إلى بعض بروابط متينة .

على أن شخصيات رئيسة أخرى تختص بها كل رحلة من رحلاته الأولى والثانية والرابعة ، مساندة بذلك الشخصية الأولى الأساسية ، ففي الرحلة

---

(١) انظر (٢٢٨/١) .
(٢) انظر (٦٨/٢) .
(٣) انظر (١٢١/٤) .
(٤) انظر (٨٧/٢) .
(٥) انظر مجلة سندباد السنة ٣ ع ٣٧ ، الرحلة (١٣/٣ - ١٤) .
(٦) انظر ١٠٥/٢ ، (١٤٩ - ١٥٠) - ١٠٤ .
(٧) انظر (٥٠/١) و (١٦٢/٢) .
(٨) انظر (١٥٠/٤) .
(٩) انظر (٦٩/٤) .

الأولى تلقانا شخصية هلهال والجعفري ، والثانية ترافقنا شخصية هلهال أيضًا ونحن نتابع قراءتها ، أما في الثالثة فإن شخصية سندباد تنفرد بالمهمات الجسام تعاونها شخصيات ثانوية تتعدد بتعدد البيئات بين مجاهدين وتجار ولصوص وأصدقاء ، وفي الرابعة تأتينا شخصية شيخ القافلة .

فهلهال في الرحلة الأولى إنسان قذف به موج البحر العاتي مع أمه إلى شاطئ جزيرة في المحيط الهندي ، ثم توفيت أمه وخلفته وحيدًا يعاني فاستأنس الوحوش وأنسته إلى أن قيّض الله له سندباد والجعفري ، فعلماه التمدن والتحضر ، والقراءة والكتابة ، ثم اكتشف بعدُ أن الجعفري خاله فرافقه إلى موطنه ، ثم هرب ليبحث هو الآخر عن أبيه مرافقًا سندباد ، وقد خاطر بحياته في سبيل أمنيته الكبرى [١] .

كان هلهال بطلاً لا يبارى يصرع الأسد ، ويقوى على جماعة يودون استرقاقه وكان شديد التحمل للمصاعب [٢] ، شديد الوفاء للأصدقاء [٣] ، وقد رأى أباه في واحة بني جعفر بالاستعانة بالجعفري ، والتأم شمله بعد فراق سنين عصيبة [٤] .

أما الجعفري فقد تعرف عليه سندباد في جزيرة نائية ألقاه موج البحر إليها كما ألقى سندباد قبله ، وكان ابن شيخ واحة بني جعفر [٥] ، هذا الشيخ الذي كان شهبندر - والد سندباد - يتاجر بأمواله وأموال قبيلة واحة الحارثية معه ثم دهمه اللصوص وسرقوا أمواله [٦] ونشبت العداوة بين القبيلتين إثر الحادث ، إذ ظن شيخ الجعفرية أن التاجر هرب بأمواله على حين دافع عنه

---

(١) انظر الرحلة ١٠٤/١ - ١٢٨ - ٢٣١ ، والثانية/٣٩ - ٤٠ - ٨٦ .
(٢) انظر (٥٢/٢ - ٥٣) .
(٣) انظر (١٢٩/٢) .
(٤) انظر (٢٠٧/٢ - ٢١١) - (٢٢٨ - ٢٣٠) .
(٥) انظر (١٠١/١) .
(٦) انظر (٢٩/١ ، ٨١ ، ١٠١) .

زعيم واحة الحارثية [(١)] ، كما عمل سندباد على تأليف القبيلتين [(٢)] ، ووعدهما بردّ أموالهما ، وقد رافق سندباد في حياته في الجزيرة ، وفي سجنه عند المجوس ، ثم عاد إلى واحته برفقة ابن أخته هلهال بعد أن يسر الله لهم مركبًا أقلّهم إلى ديارهم ، ثم صادف سندباد في عدن ، وصحبه هذا إلى الجزيرة التي هرب إليها هلهال ليلقى - بزعمه - أباه هناك ، وعاد به إلى واحته حيث كان والده [(٣)] .

والجعفري إنسان نكّب في حياته نكبات جعلته لا يحسن كبير عمل ، ومن هنا كان يرافق سندباد ويصير عالة عليه في معظم الأحوال ، إلا أنه كان شديد الوفاء ، وقد أبدى رفقًا به في مرضه بعد رحيل أبيه عن الجزيرة [(٤)] .

وشيخ القافلة إنسان نبيل لمع اسمه في أواخر القصة الثالثة ، واستمر يقدم عطاءَه على مسرح الرحلة الرابعة ، فقد تمّر السندباد أمواله وأعطاه أرباحها ، دون أن يعلم بها ، بل كان يظن أنه مدين له [(٥)] ، ثم ساعده ثانية في الحصول على الكنز وحذّره مكائد الطامعين الذين سعوا للإيقاع به ، ثم عفا عنهم ، وكان عليهم قديرًا [(٦)] ، وكذلك عرّض نفسه للمخاطر من أجل صاحبه ، وكان له كالأب الرحيم الذي لا يطمع على معروفه بمغنم أو أجر وأخيرًا أنقذه من قتل محُتّم في جزيرة النسانيس [(٧)] .

اما الشخصيات الثانوية فقد تعددت في كل رحلة ، واختلفت فى إجمالها عن شخصيات الرحلات الأخر ، وعملت على مؤازرة الرئيسية ، وعلى توجيه الحبكة ، وتطوير الأحداث ، حتى إن دور بعضها لا يقل عن دور بعض

---

(١) انظر (٨١/١ - ٨٢ - ١٠١ - ١٠٢) .

(٢) انظر (٣٣/٢) فصل : الصلح خير .

(٣) انظر (١٩٧/٢ - ٢٠٧ - ٢١١ - ٢٢٨ - ٢٣٠) .

(٤) انظر (٢٩/١) فصل : مريض في المغارة .

(٥) انظر مجلة سندباد السنة ٣ ع ٤٢ الرحلة ٣ ص (١٣ - ١٤) .

(٦) انظر (٩١/٤) فصل : الطريق إلى الكنز ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١١٢ .

(٧) انظر (١٦٠/٤) فصل النجدة .

الشخصيات الأساسية ،كشخصية أبي الإسعاد مثلاً في الرحلة الرابعة ، فهو يواسي سندباد في سجنه ، ويحول دون إغفال حقه في الفندق ، ويدفع عنه شر أشرس وحنظل مشتركًا مع شيخ القافلة ، كما يساعده في جزيرة النسانيس في قتل عدد من هؤلاء المخلوقات ، ويعمل على صنع سفينة ليعودوا على ظهرها إلى موطنهم [١] .

على أن دور بعض الشخصيات الثانوية يقتصر على توضيح فكرة كشخصية الشيخ بشير في الرحلة الأولى التي عرّفت سندباد على المصيبة التي دهمت والده حين سرقه اللصوص ، وعلى هربه من بطشهم إلى الجبل الشرقي [٢] ، وبعضها ألقى ضوءًا على شخصيات رئيسية كباقر في الرحلة الرابعة ، إذ وضح الدور الذي قام به سندباد في جزيرة النسانيس ، وكان لسعيه فيها أثر في التقاء سندباد بأبيه [٣] . وبعضها كان لمجرد ذكر حادثة لها أثر في توسيع خبرات الأطفال ومداركهم ، وخيالهم ، كشخصية القاضي والسجان في الرحلة الرابعة إذ كشفتا عن مساوىء أجهزة العدالة [٤] .

وأستطيع أن أضيف إلى هذه الشخصيات الثانوية شخصية حيوانية كان لها دورها في القصة ، ألا وهي «نمرود» كلب سندباد الذي كان يدل على وجود بعض رفاقه في أماكن عدة ، ويخلصه من الأضرار أحيانًا ، ويشرف على تمريضه حين يحوج الأمر إليه [٥] .

* * *

(١) انظر الرحلة (٤/٤١ - ٤٣) ، وفصل كنز تحت الفندق ص (٦٠) ، و (١١٢ - ١١٥) و (١٤٧) فصل مغارة في الجزيرة ، و (١٨٧ - ١٨٩) .

(٢) انظر (١/٢٩) .

(٣) انظر (٤/١٤٩ - ١٥٠) .

(٤) انظر (٤/ الفصول التالية : برهان على الجريمة /٤٠ ، في ظل المشنقة /٤٨ ، القتيل في المحكمة / ٥٢ ، دليل البراءة /٥٦) .

(٥) انظر الرحلة (٢/١٧٨ ، ١٩٨) ، والأولى (١٣١ ، ١٣٢ ، ٢١١) .

أما طريقة ظهور الشخصية على مسرح الأحداث فأغلبها مما يصادفه سندباد في رحلاته ، ويحكي لنا ما جرى له معه ، كشخصية ملك الجبل ، وهلهال ، وشيخ الواحة الحارثية ، وحنظل ... إلا أن بعضها ظهر عن طريق الحوار كشخصية باقر التي شاركت في الأحداث بعد ما ورد اسمها على لسان شيخ القبيلة . في الرحلة الرابعة [١] . وكذا شخصية «بارسي» التي عرفناها مذ ذكرتها سيزا حينما أخبرت سندباد «سادي» عن الرجال القادمين إلى الكوخ [٢] .

على أن شخصيات أخرى عرفناها من خلال الحوار الذي جرى بينها وبين شخصية أخرى ، فمنجود في الرحلة الثانية يظهر على النحو التالي :

«ثم حدث شيء لم أكن أتوقعه ...

ذلك أنني كنت جالسًا ذات يوم على دكة بالقرب من باب الفندق ، إذ دخل داخل فحسبته نزيلاً جديدًا يريد أن يأوي إلى الفندق ، فقمت له وأنا أقول كعادتي : أهلاً وسهلاً ومرحبًا ...

فنظر في وجهي لحظة ثم قال : أين أخي ؟

قلت : من أخوك يا سيدي ؟

قال : أخي «عمارة» صاحب هذا الفندق !

قلت : إنني أنا صاحب هذا الفندق ، فهل من خدمة أؤديها لك ؟

فحدّق في وجهي كالمدهوش ، ثم قال لي : إن أخي عمارة بن فرهود هو صاحب هذا الفندق ، وأنا أخوه منجود ، فمن أنت ؟ [٣] .

فهذا الحوار عرّفنا على منجود الذي سيقت حوادث كثيرة تتعلق به ، وكان سبب ظهوره وسيلة لتطوير حوادث جديدة تتعلق بالفندق والكنز .

---

(١) انظر (٤ / ١٣٥) .

(٢) انظر (٢ / ١٣٠) ، وسادي هو اسم سندباد في رِقّه .

(٣) انظر (٤ / ٢٣ - ٢٤) .

ولقد آثر الأديب الطريقة التحليلية في تبيان صفات الشخصية ، وعَرْض أعمالها على الطريقة التمثيلية ، إذ كان معظم الفصول يرد حكاية على لسان سندباد إلا في رحلته الرابعة ، فقد فضل الطريقة التمثيلية على طريقة السرد الذاتي المباشر على نحو ما نراه في فصله «جريمة في الفندق» الذي كثر فيه الحوار (١) .

ولقد استطاع أديبنا أن يتغلغل في أعماق شخصياته ، فيحلل نوازعها وميولها ، وآمالها وآلامها ، بحيث تعبر في كثير من أحوالها عن أفكار الأديب وأمنياته ، بل إن القصة في مضمونها أمنية سعى سندباد لتحقيقها ، وتحمل الأهوال من أجلها ، وهذا مثال يوضح لنا نفسية سندباد وميوله بعد أن صمم السيد على أخذ هلهال مليكه .

« ... وقد حاول هلهال أن يعتذر عن نفسه ، وأن أعتذر عنه ، ولكن الرجل لم يقبل منا عذرًا ، وأعانه عليه سائر الركاب ، فأخذوا يزيّنون له صحبته ... ولم تكن بنا حاجة إلى شيء يزينون لنا ، إذ كان لقاء أبوينا أحبَّ إلينا من لقاء الملك ومن كل خير عنده ، ولكننا لم نلبث أن عرفنا أن معارضتنا ليس منها فائدة ؛ فقد صمم الرجل أن نصحبه طائعين أو مكرهين ...

إن بعض الملوك لا ينظرون إلى الناس كما ينظر الناس بعضهم إلى بعض ، لأنهم يظنون أنفسهم من طينة أخرى غير طينة البشر ، فهم السادة ، والناس كلهم عبيد في خدمتهم لا يملكون إلا السمع والطاعة ، وكذلك كان ذلك الملك الذي يُراد أن نُحمل إليه ، وكان أتباعه مثله في جبروته وظلمه ، ومن أجل ذلك رأيت نفسي وصاحبي منذ تلك الساعة كأننا عبدان لذلك الملك وتابعه الجبار لا نملك لأنفسنا حرية الرأي ، ولا حرية الحركة ، فإذا لم تهيء لنا المقادير الرحيمة فرصة للفرار ، فقدنا حريتنا إلى الأبد» (٢) .

---

(١) الرحلة (١٢/٤) .

(٢) الرحلة (٤٧/٢ - ٤٨) .

فهنا حلل لنا الأديب نفسية سندباد في كراهيته للملوك والسادة الذين يستعبدون الناس دون أن يكون لهم عليهم سلطان سابق ، إلا النظرة المتعالية، والقسوة والجبروت ، وكان في تحليله هذا معبرًا عن رأيه هو تجاه الملوك ، وإذا عرفنا أن بدء نشر الرحلات كان منذ أوائل الخمسينات أدركنا السر السياسي من ورائه فالعريان من الضباط الأحرار الذين وقفوا وقفتهم المعروفة ضد الإنكليز ، والملوك الحاكمين حتى عهد فاروق [١] . وكان يريد أن ينتزع من نفوس الصغار والناشئة حب الملوك وأتباعهم ، ومن هنا تؤدي الرحلات غاية قومية إلى غاياتها الأخرى .

وهذا مثال آخر يوضح لنا نفسية سندباد الوفي الودود لأصدقائه ، فهو يضع عنقه في الرق ليقدم الخير إلى صديقه ، لما يراه فيه من شوق إلى أبيه يعادل لهفته إلى لقيا والده :

«وكنا قد غفلنا عن هلهال لحظات ، فلم يكد يرى الرجل يتهيأ للنزول حتى وثب من مكان ... ثم جرى إلى الرجل يمسك به وهو يقول : بالله خذني إليه !

وتدحرجت على خديّ دمعتان إشفاقًا على رفيقي هلهال ، وإشفاقًا على نفسي ؛ فقد ذكرت في تلك اللحظة أبي كما ذكر هلهال أباه ، وتصوَّرتُني في مثل حاله ؛ فماذا كنت أملك أن أفعل في مثل تلك اللحظة إلا أن أمسك بذلك الخيط الذي آمل أن يوصلني إلى أبي ؟ .

لقد كنت في مثل هذه الحالة يومًا منذ عام مضى ، ولكني لم أعرف أحدًا يوصلني إليه ؛ أما هلهال فقد عرف ...

وقلت للرجل وأنا أغالب دموعي : بالله عليك خذه معك ، وخذني !

... قال : لا آخذكما إلا كما يؤخذ الأسرى : لا حرية لهم في عمل ولا في حركة إلا بإرادتي ؛ فهل تصحباني على هذا الشرط ؟

---

(١) للمؤلفة كتاب في حياة العريان بعنوان : «محمد سعيد العريان حياته ، فن المقالة والسيرة عنده» .

وأسرع هلهال قائلاً : قد رضيت ، فضع القيد في يديّ ورجليّ كما توضع القيود في أيدي السجناء وأرجلهم ، واسحبني وراءك ماشيًا على الطريق ...

فأخذ الرجل حبلاً من حبال السفينة فربط يدَيْ هلهال ، ثم تقدم إليّ بحبل مثله ... ...

لماذا أقدّم عنقي للرق طائعًا ، وأبيع حُريتي بلا ثمن ، وهي أغلى ما أعتز به ؟ ولكن صديقي هلهال قد قدّم عنقه للرق ، ويديه للقيد طمعًا في لقاء أبيه ؛ فهل أدعه يذهب وحده بلا رفيق يؤنس وحشته ويدفع عنه السوء ؟ .

وماذا يضيرنا القيد في أيدينا ، أو في أعناقنا إذا كان آخر المطاف أن يلقى هلهال أباه ، وأن ألقى أبي ؟» [1] .

فهنا يصور لنا الأديب نوازع كل من سندباد وهلهال وأمنيتهما في رؤيا أبيهما ، هاتان الأمنيتان جعلت كلاً منهما يقدم نفسه للاستعباد ، وصحبه الأول إشفاقًا أن يذهب هلهال وحده ، وطمعًا أن يعرف أباه ، أو يعرف من يوصله إليه ، على الرغم من أن الحرية أثمن ما يعتز به حيّ كما قال سندباد .

والعريان كعادته إذا أحب شخصية من شخصيات قصصه تعاطف معها، ونسب إليها الفضائل المثلى ، وإذا ما سخط عليها صبّ عليها جام غضبه وسياط عذابه . ومن هنا كانت شخصياته من النوع المسطح ، الذي يلائم عقلية الطفل ومداركه وقدرته على التذكر ، فسندباد فتى نبيل سمح حتى مع الأعداء ... وحنظل وأشرس لا تعرف الرحمة إلى قلبيهما سبيلاً ، شرهان إلى المال ، يرتكبان الجرائم من أجله حتى ولو كان غريمهما ممن أسدى إليهما معروفًا ، بل إنهما يتصارعان وقد كانا متكاتفين ضد عدوهما ، ويحاول كل منهما أن يبطش بصاحبه ليحظى بالثروة منفردًا ، بل إن اسميهما اللذين اختارهما الأديب يدلان على رأيه فيهما ، والطباع التي يتصفان بها [2] ؛ لكنه جعل الشخصيات الخيرة

---

(١) الرحلة (٢/٦٨ - ٨٧) .

(٢) انظر الرحلة الرابعة ص (١٠٣ - ١٠٤) .

تنتصر على الشريرة على الرغم مما يحفّها من مصاعب وأهوال ، ولقد كان بمكنة الأديب أن يجعل شخصياته كلها مثالية إلا أن عرض الشر إلى جانب الخير يجعل القارئ يطلع على نماذج مما يحويه المجتمع ، حتى إذا ما خرج إلى الحياة العملية لم يصطدم بالواقع ، وكان لديه خبرة في معاملة هؤلاء وهؤلاء .

وتتضح الشخصية النموذج عند الحديث عن البوذيين والمجوس ، فالفرد من هذين القومين يعبر عن الطبقة التي يعيش معها ، ويتمثل آراءها وعقائدها، بل إنه ما جاء بهما إلا ليصف لنا بعض عادات وأديان الأمم الأخرى ، ومن هؤلاء بهرام وأبوه فهما فردان من أفراد جزيرة يدين أهلها بالبوذية ، ويعبدون الصنم بوذا ، ويقدمون إليه بشرًا قربانًا علّه ينجيهم من المصائب ، ومن هنا كان اختيار الوالد لسندباد ليكون ذبيحًا للصنم بعدما توفرت فيه الشروط التي يطلبها الكهنة ، ومن هنا أيضًا كان تقديس سندباد وصاحبه بعد ما عاد - ببركتهما - ابنه بهرام كما ادعى لهما سندباد وتحقق [١] .

وأخيرًا فإن الأسماء التي أطلقها الأديب على شخصياته كانت متلائمة مع تصرفاتها كما في تسمية حنظل ، وأبي الإسعاد ، وبالثاني عثر سندباد على حظ سعيد أتاه بالكنز [٢] .

أو دالة على المهمة التي أسندت إليها في القصّة كما في العمة «مشيرة» فهي التي حضنت أولاد أخيها ، ثم حكت لسندباد قصة أبيه ، وأرشدته إلى أوراق يحصل منها على بعض ما يلزمه في رحلته للبحث عنه [٣] .

أو منسجمة والبيئة التي يُتَحدث عنها كتسمية صفوان ، والشيخ بشير في البيئة العربية المسلمة ، وبهرام وبارسي في البيئة البوذية .

* * *

---

(١) انظر (٢/١٠٣ - ١٤٢) .

(٢) انظر (٤/٦٢ - ٦٦) .

(٣) انظر (١/١٥ - ١٦) .

أما تسمية سندباد فلقد حافظ فيها الأديب على الاسم الأسطوري الذي انتقل إلينا مع قصة السندباد البحري المودعة في «ألف ليلة وليلة» بل إنه نسب بينهما قرابة ، ولذا سمي أباه اسمًا أعجميًّا «شهبندر أو شاهنامق» وكذلك دعا أختيه «قمر زاد» و «شمس زاد» وهذا يدل على التحام اللغتين والشعبين الفارسي والعربي .

على أن شخصيات لم يُعَيّن لها اسم وردت تحقيقًا للمهمة المسندة إليها فالجعفري ما كان ليستدل على قرابته من هلهال لو لم يحمل هذا اللقب (١) . والسيّد في الرحلة الثانية أخفى اسمه ، ولو عرّفه ، وكان والد هلهال ، لتمّت الرحلة الثانية من أولها بلقاء ابنه له (٢) .

وقد تدل على المرتبة الاجتماعية التي تتمتع بها الشخصية كلقب السيد نفسه للتاجر الذي صادفه سندباد وهلهال وكاد يأخذهما إلى الملك عنوة وقد سمّاه بالسيد ليبيّن بعدُ رأيه في الملوك والسادة وقسوتهما على عباد الله ، على لسان سندباد (٣) .

وشخصيات الرحلات الرئيسة منها والثانوية عملت على تصوير البيئة التي حلت أرضها ، وصورت بذلك المجتمع العربي المسلم ، والبوذي ، والمجوس ، والديانات السائدة ، والأعراف والتقاليد ، وقد مرّ ذلك آنفًا (٤) .

٨- الحوار

الرحلات في مضمونها حديث سندباد إلى المؤلف ينقله إلى القراء ليطلعهم على مغامراته في سبيل البحث عن أبيه ، لكنا لو تصفحنا ما فيها من حوار جرى بين شخصياتها التي يحكي عنها سندباد لرأيناه قليلاً في الرحلة الأولى،

---

(١) انظر (١/١٠١) .

(٢) انظر (٢/٤٦ - ٥٩) .

(٣) انظر (٢/٤٦ - ٥٩) .

(٤) انظر موضوعات الرحلات في هذا الكتاب ص (١٤) .

ثم يزداد قليلاً في الرحلة الثانية ، فالثالثة ، حتى إذا ما وصلنا إلى الرحلة الرابعة غلب الحوار السرد الذاتي ، ولعلّ في هذا ما يدل على وعي أكثر بفنية القصة لما تحتاج إليه قصص الأطفال ، أو حتى القصص التي تؤلف للكبار من حوار تمثيلي يضفي حيوية ورشاقة على جو القصة .

ولقد عمل الحوار على التمهيد للحوادث وتطويرها ، وهذا حديث يجري بين سندباد وصديق أبيه البحراني يخبره فيه عن «شاهنامق ، شهبندر» أبيه .

«قال البحراني : وقد رأيت حق الصحبة أن أونس وحشتها في عينيك ... وتنقل بنا الحديث ذات يوم من واد إلى واد فقصصت عليها بعض ما أعرف من أنباء أبيك ، فإذا هي تثب واقفة لتسألني وفي عينيها بريق عجيب : أنت تعرف شاهنامق ؟ فأدهشتني حركتها وسؤالها ، إذ لم يكن حديثي منذ بدأت إلا عن شاهنامق منذ استوطن البحرين ، فلم أفهم معنىً لسؤالها ذلك ...

قلت : مَنْ شاهنامق هذا ؟

فوثب الرجل من موضعه كأن أفعى لسعته ، قال وهو يحدق في وجهي : ماذا بك يا سندباد ؟ أنت أيضًا يصيبك الصرع الذي يصيب سيزا ؟

قلت وقد هببت للوقوف : هل أصابها الصرع ؟

قال وهو يتراجع إلى الوراء كالمذعور : لماذا تنظر إليّ كذلك ؟ إن الصرع منك وراثة . ابعد عني ، إنني لا أطيق أن أنظر إلى وجهك ، ولا في وجه سيزا ، إنني لا أعرف شاهنامق ، ولا أريد أن أعرفه ، ولن تلفظ شفتاي اسمه بعد اليوم !

وأيقنت أن الرجل قد أصابه مس فأردت أن احتال لتهدئته ، فعدت إلى مجلسي وقلت في لفظ هادئ :

إنني لا أعرف شاهنامق هذا ، ولا تعرفه سيزا ، فليس يعنيني شيء من أمره !

وكنت أظن أن كلمتي هذه سترده إلى شيء من الهدوء ، ولكن عينيه

ازدادتا اتساعًا كما ازدادا تراجعًا إلى الوراء ، وهو يقول : الست تعرف أباك يا سندباد ؟ قلت : أبي هو شهبندر .

قال : نعم شهبندر أو شاهنامق ، إنه أبوك الذي لقيته معنا في تلك الجزيرة منذ عام مضى» (١) .

هذه المحاورة عملت على تبيان أخوّة سندباد لسيزا «شمس زاد» ، وبالتالي ساعدت على توالي الذكريات على مخيلة شمس زاد لتعيد لها صورة دارها وأمها وأبيها ، ومن هنا فقد تمكن سندباد من معرفة أخبار كثيرة بعد اتصاله بخال أخته هذه ، وهي محاورة تصور لنا الحيوية والرشاقة التي يمتاز بها حوار العريان في رحلاته .

على أن حواره عامة بسيط في أفكاره ، وملائم للشخصية التي تنطقه فحديث المسلم غير حديث البوذي ، وعبارات شيخ القبيلة غيرها عن القاضي ، وهذا حوار مقتطف يصور متهمًا أمام قاضٍ :

«وكان أسبقنا إلى الحديث هو الرجل الذي دفع إليّ صرة الدنانير ، فنظر إليّ ثم نظر إلى القاضي وهو يقول : يا سيدي إن كان لابد من عقوبة تنال أحدنا فلتكن لي ، ويطلق سراح هؤلاء الأبرياء الثلاثة : فدهش القاضي لقوله ، وسأله : أتعترف بأنك القاتل ؟

فارتعش الرجل رعشة خفيفة ثم قال : مهما يكن الأمر فليس القاتل هو سندباد ، وليس على هذين السجينين ذنب ، فإنني أنا المذهب وحدي !

فالتفت القاضي إلى كاتبه فأملى عليه : اعترف المتهم بأنه هو القاتل !

فقاطعه الرجل قائلاً في حدة لم أقل هذا ...

فعاد القاضي يملي : ثم عاد القاتل فأنكر ...

فصرخ الرجل : لست قائلاً ولم أعترف بشيء ، ولم أنكر شيئًا ...

فابتسم القاضي وعاد يملي : ويبدو أن المتهم مجنون ليس في رأسه عقل!

---

(١) الرحلة (٢/٢١٣ - ٢١٥) .

فصرخ الرجل لست مجنونًا : قل إنني قاتل ولا تقل إنني مجنون !

فأملى القاضي : وعاد المتهم فاعترف أنه مرة أخرى بأنه القاتل !

فقال الرجل في حدة : من الذي اعترف ؟ ، إنك - يا سيدي - لم تفهم قولي !

فانقلبت سحنة القاضي وعاد بعد الهدوء ثائرًا عنيفًا وصاح في وجه الرجل :

أجريمة وجنونًا وسوء خلق ؟ قد حكمنا عليك ... [1] .

فألفاظ ، الاعتراف والذنب والاتهام والحكم تلائم شخصية القاضي ، وكذا تنسجم مع الموقف الذي وقفه المتهم أمامه .

على أن هذا المثال يصور جزءًا من الحياة الواقعية حين يصف لنا ما يجري في المحكمة ، وهذا مثال أخر يوضح حياة المجوس عن طريق الحوار أيضًا :

« ... فقلت في رقة ولين : ولكنا لم نأخذ بهلول كرهًا . إنه هو الذي آثر صحبتنا على البقاء بينكم .

قال الرئيس في حزم : ولكنه يجب أن يعود راضيًا أو كارهًا !

قلت لك ما تشاء فأطلق سراح صاحبي لأرسل إليك صاحبك !

قال هيهات ، إنه رهينة بين أيدينا حتى يعود بهلول !

فقلت في شدة وغضب وحدة ! إنك لا تصدقني إذًا ؟ فوحق النار المقدسة ، إن لم تطلق لي ضيفي لأشعلن في أرضك نار القيامة مهلكة مدمرة لا تبقي ولا تذر ! ...

ثم وليت وجهي عنه وهممت أن أمضي ، ولكني لم أكد أخطو خطوة حتى سمعت نداءه من خلفي : سندباد ، أنت عندنا صادق مصدق ، فهل تعدني بأن يرجع بهلول إلى أهله ؟» [2] .

---

(١) (٤/ ٥٤ - ٥٥) .

(٢) (١/ ١٩٩ - ٢٠٠) .

فإذا علمنا بأن سندباد لما علم بأن القوم يؤمنون بالنار معبودًا ، أو يعتقدون أن إطفاءها يعني قيام الساعة ، وأنه أوقد نارًا أمامهم فقدّسوه وعدّوه خالقها ، إذا علمنا هذا أدركنا قيمة القسم الذي حلف به في مثل هذه البيئة لينقذ صاحبه الأثير ، وهذا الحديث يمثل حزم الرئيس الذي عامل أعداءه بالمثل واحتجز الرهينة حتى يعود إليه ابن قومه .

ومما يمتاز به حوار الرحلات طول الجمل حين يدعو المقام لذلك ، كأن يخبر عن أمور علمية ، أو حادثة جرت على نحو ما نراه من حديث شيخ القافلة إلى سندباد يحدثه عن المد والجذر (١) .

ومن الحوار الانفعالي الذى يجعل الحديث يتقطع تقطع أنفاس القائلين من الخوف والحذر ، أو ترقب الشر ، قوله :

« ... وأما أنا فأحسست في نفسي رغبة شديدة في الذهاب إلى أخر المغارة لعلي أجد هنالك بعض آثار أبي ، وَلحَظَ باقر ترددي ، فقال لي : بماذا تحدث نفسك يا سندباد ؟

قلت : أريد أن أصل إلى الباب الأخر فأجد ما هنالك ...

فصاح بي : أنت مجنون ! أجلس !

ثم جذبني من ذراعي فأجلسني ، واستمر يقول : إنك إذا خرجت في نور النهار وقعت عليك عيون النسانيس فيقتلونك كما قتلوا شهبندر ! فهاجتني هذه الكلمة ، وأفلت من يده مندفعًا إلى داخل المغارة ؛ فجرى أبو الإسعاد ورائي وهو يقول : انتظر ، لا تذهب وحدك !

ولم يلبس أبو الإسعاد أن أدركني ، فوضع يده على كتفي قائلاً : أليس من الخير أن نعود مكاننا ، ولا نرمي بأنفسنا إلى الهلاك !

قلت مغتاظًا : عد إن شئت أما أنا فلابد أن أذهب !

... وفجأة صاح أبو الإسعاد : قف لا تتقدم خطوة واحدة !

---

(١) (٤/١٠ - ١١١) .

ثم سقط إلى جانبه وهو يصرخ : أه !

... ماذا جرى يا أبا الإسعاد ؟

قال لا شيء ، ولكني عثرت فوقعت فالتوت قدمي !

فعاد إلي بعض الاطمئنان ، وهممت أن أخطو إليه لأنهضه ، ولكني لم أتبين مكانه في الظلام ، فقلت له ارفع صوتك لأهتدي إليك !

قال هامسًا : لا أرفع صوتي ولا ترفع صوتك ، فإني أخاف أن يسمعونا فقد رأيت ظلالهم تتحرك قريبًا منا قبل أن أسقط !

قلت منكرًا : رأيت ظلالهم في هذا الظلام ؟

قال : صه ، ولا كلمة ! (١) .

فهنا نرى أن الأديب كثرت جمله حين تحدث عن مواطن انفعالية ، وحالة نفسية قلقة ، وتوالت أفعاله ، وكثر تساؤله وتكراره ، ولكل مقام مقال .

٩- الأسلوب

آثر العريان في رحلته العربية الفصحى . ليعلم أطفالنا لغتنا بأسلوب جذاب مشوق ، ولتكون الفصحى رابطة بين أقطار العربية التي تنشر فيها مجلة سندباد (٢) ، ولو كان كتبها باللهجة المصرية لبقيت سجينة الأرض التي أنتجتها ، ولضرب مثل سوء لمن أراد أن يؤلف بمعزل عن أسرته العربية المنتشرة فى أقطار الإمبراطورية العربية الشاسعة كما يقول كامل الكيلاني (٣) . ولذا كان وأمثاله من كُتّاب أدب الأطفال المخلصين للغتهم وأمتهم لا يسمحون «في إثبات لفظة عامية أو أعجمية دخيلة لا يقرها اللسان العربي ، ولا توائم أساليب الفصحى ، فإن كل خطأ في ضبط الكلمات التي نقدمها لأطفالنا ... جناية على لغتنا أي

---

(١) (١٥١/٤ - ١٥٢) .

(٢) لأن الرحلات نشرت فيها أولاً ثم ضُمت في كتاب ذي أجزاء .

(٣) انظر الرسالة س ١٩٤٧ ع ٧٠٥ ص ٣٣ مقال كامل الكيلاني بعنوان كيف ننشئ أطفالنا .

جناية ، وتعويق لنهضتنا أي معوق» [(١)] .

وأسلوب هذه الرحلات يوائم الطفل في مستواه اللغوي ، إضافة إلى الأفكار والمعاني المنسجمة ، والخبرات والميول ، لكنها مع ذلك أظهرت ما يمتاز به أديبنا من جزالة في أسلوبه عامة ، وإن كان لان بسبب جمهوره الطفولي القارئ . هذه الجزالة تبرز في أدبه في انتقاء الألفاظ ذات الحروف القوية ، وسبكها في تراكيب محكمة ، وعبارات واضحة ، ولعله قصد من وراء ذلك تقويم لسان الناشئة ، ولنقرأ له هذا النص الذي يبين عن أسلوبه في الرحلات :

«كان الرئيس يتحدث وشفتاه تختلجان من الغيظ ، والشر يلمع في عيون أصحابه ، أما الشيخ البحراني فظل واقفًا بينهم يسمع ما يدور من الحديث بيني وبين الرئيس ولا يفهم شيئًا إذ كنت أتحدث إلى الرئيس بلغة قومه ، وكذلك كان يجيبني ...

واطمأننت حين عرفت السبب الذي قبض القوم من أجله على الشيخ البحراني ، فقد ظنوا أن بهلولاً لم يصحبنا مختارًا ، وإنما أخذناه كرهًا ليكون عبدًا يخدمنا ، ومن أجل ذلك كان غضبهم ، فقلت في رقة ولين : ولكننا لم نأخذ بهلولاً ، إنه هو الذي آثر صحبتنا على البقاء بينكم [(٢)] ...» .

فهنا لا نجد كلمة تحتاج إلى شرح ، ولكن النص مع ذلك قوي في أسلوبه قوة تجعل القارئ الطفل يلذ لقراءة هذه الرحلات فيستفيد من مادتها اللغوية ، والعلمية ، ولقد آثر الأديب الألفاظ السهلة في معانيها ، ثم أحكمها في تراكيب قوية ، وجمل منسقة .

والمؤلف في رحلاته يعمد إلى شرح الكلمات الصعبة بجمل أو مفردات توضح معناها من ذلك قوله :

«ولم أكن أظن أن أحدًا يُقبل على شرائي ، فإنني فتىً ضئيل الجسم ،

---

(١) انظر السابق .

(٢) (١٩٩/١) .

دقيق العظام ، ليس لي قوة على حمل الأثقال ، ولا جرّ العربات ، ولا الدوران في الساقية والطاحون ، ولم يكن لي صوت مليح مثل صوت هلهال ، فأصلح للغناء والإنشاد ، وتدليل الأولاد ...

لكني لم ألبث أن رأيت الدلاّل يقبل عليّ فيقودني إلى المصطبة ، ليعرضني على عيون «السادة» المشترين ؛ فحاولت أن أحتج وأعاند ، وأثبت قدمي في الأرض ؛ ولكنه جرّني جرًّا عنيفًا فلم أستطع المقاومة» (١) .

فالمؤلف عمد إلى التكرار في «ضئيل الجسم ، دقيق العظام» ، «الغناء والإنشاد» ، «أحتج وأعاند وأثبت قدمي في الأرض» وذلك ليمكّن المعنى في ذهن الأطفال .

كما أنه يعمد إلى شكل المفردات التي تحتاج إلى ذلك ليسهّل قراءتها ، ويتعلمها الناشئ حين يراها ، ويلفظها للمرة الأولى صحيحة فصيحة ، وذلك نحو «جُمجمته» «وشَرِقْتُ بريقي ، سَعَيْنا» .

وهناك ألفاظ يؤثرها الطفل لما فيها من نغم حلو جذاب ، حسن الوقع على الأذن ، بسيطة منسجمة مع لغة الطفل وذوقه ، فالكلمات شقشق ، وتسللت ، والخُرْج ، وانكبس ، تلائم نفسية الطفل في موسيقاها ومعناها ، ولغتها المعهودة عنده ، وذلك في قوله :

«فلما شقشق الفجر تسللت خارجًا من الدار دون أن يحسّ بي أحد» (٢) ، وقوله : «ولما أعددت هذه العُدّة وجدت الخُرْج قد انكبس وثقل حمله ، ولكني لم أهتم بذلك» (٣) .

فكأن هذه العبارات تأتي على لسان طفل يحادث آخر بكل بساطة وعفوية ، وهناك كلمات صعبة لم يشرحها بمرادفها ، وإنما ترك للسياق دور القيام

---

(١) (٢/٩١) .

(٢) (٢/ ١٣ - ١٤) .

(٣) (١/١٤) .

بهذه المهمة ، وفي ذلك تنشيط لذهب القارئ الطفل في البحث عن معناها ، من ذلك قوله :

«وهممت بالقيام ، وقد عوّلت على الدفاع عن نفسي إلى أخر رمق ... وقلت لنفسي وقد شرقت بريقي من الخوف : بأرجلنا سعَيْنا إلى الموت طائعين» [١] .

فكلمة عوّلت ، وكذا رمق ، شرقت تتضح من خلال السياق ، فالطفل يفهم عزم سندباد على الدفاع عن نفسه قدر المستطاع ، وكذلك شرقت إذ يأتي ما بعدها «بريقي من الخوف» ليؤدي المعنى الذي أراده وهو غصصت بريقي .

أما عناوين الفصول فإنها توائم نفسية الطفل ومضمون الفصل معًا ، ففي تسميته «في مخبأ العصابة» يتحدث عن الملجأ الذي يلتجئ إليه من حَسِبهم عصابة شر ثم عرف أنهم جماعة من المكافحين المخلصين الذين صدق إيمانهم ، وخلصت قلوبهم لحب الجهاد في سبيل الله ، وإنقاذ الوطن من براثن العدو .

وهناك عناوين خيالية آثرها الأديب لما فيها من تحريك لمشاعر القراء وخيالهم إذ تدع الطفل وهو يتملآها يسبح في عالم الخيال مع المعاني التي تتضح له في الوهلة الأولى إثر سماعها ، من ذلك تسمية «رقبة تحت السيف» الذي يوحي بأن سندباد سيكون ذبيحًا بعد استرقاقه ، وكذلك كانت النية ، لولا أن نجاه الله بحنكته وذكائه ، وقوله «خالق النار» يوحي بمقدرة إنسان على إيجاد النار ليطيل بها مزاعم عُبّادها ، وكان سندباد ممثل هذا الدور .

١٠- *الصورة الأدبية* :

والعريان ذو أسلوب تصويري يرسم لنا فيه المشاهد واحدة تلو الأخرى ، ويقدم للقارئ صورًا ممتعة توسع أفقه وخياله ، وتزيد مداركه وخبراته ، فهو يعمد إلى الحادثة فيسهب في شرحها وتوضيح معانيها بأسلوب مصور رسام ،

---

(١) (١١٢/١) .

ريشته قلمه ، وألوانه الكلمات والجمل ، بل إنه يعمد إلى الرسوم الملونة بألوان زاهية ، وغير الملونة يزيد بها المعنى شرحًا وإيضاحًا ، ويشوق الطفل إلى متابعة القراءة ، سواء كان ذلك في المجلة أم في الكتاب ، ومن هذا الأسلوب التصويري المقرون برسوم موضحة جذابة قوله يصف فيه النسانيس بعد مقتل أميرهم :

«ثم صوّب سهمه ، وأطغتُه ، فصوّبت سهمي ، وأصابت رميته ... صدر الأمير ... وكنت أظن أنهم سيهجمون علينا سائرين إذ رأوا أميرهم قتيلاً ، ولكنهم لم يهجموا ... وكان الشيخ يظن أنهم سيفرّون مخذولين إذا رأوه قتيلاً ولكنهم لم يفرّوا كذلك ...

لم يثوروا فيهجموا ، ولم يجبنوا فيفروا ، بل وقفوا في أمكنتهم هادئين برهة ، ثم استداروا حول القتيل حلقة ، ثم ركعوا حتى كادت رؤوسهم تمس الأرض ، ثم انتصبوا كما يقوم عود من القصب مالت به الريح ، ثم ارتفع بينهم صوت رقيق كأنه غناء ثم امتزجت ألحانهم في نشيد جماعي مؤثر ، ثم رأينا اثنين منهم يتجهان نحونا وقد انحنى رأساهما إلى الأرض» (١) .

فهذا الوصف الحيّ للنسانيس جعلنا نرقب حركاتهم وهم يؤدون شعائرهم المعهودة لديهم إثر مقتل رئيسهم ، وقد عرضه الأديب مصوّرًا بذلك هدوءهم ثم تحركاتهم في استدارتهم وقيامهم ، وتراتيلهم الشجية ، وإن كانت هذه الأعراف والحركات من وحي الخيال ، لمخلوقات خيالية أيضًا .

١١- أحاسيس ومشاعر :

وتفيض القصة بعواطف نبيلة ، وليست الرحلات في مضمونها إلا تعبيرًا عن حب الابن لأبيه ، هذه العاطفة الثانية التي فطر الله الناس عليها إلا أن عواطف أخرى تنتثر هنا وهناك من ذلك حب الوطن ، وبذل المال والروح في

---

(١) (١٦٧/٤ - ١٦٨) .

سبيل تحريره من براثن المعتدين [١] ، وعاطفة الحزن من العبودية ، ونشدان الحرية أثمن شيء في الوجود ، وهناك عواطف فردية كعاطفة الخوف ، واليأس ، والأمومة والأبوة وسواها .

١٢- المغزى

أديبنا محمد سعيد العريان ممن كان يدعو إلى تحبيب الطفل المطالعة حتى يستمر في تحصيله الثقافي بعد الخروج من المدرسة ، وكان يعد القصص خير وسيلة لهذا الغرض ولقد عمد في رحلات سندباد إلى تحقيق هذه الغاية بما أودع فيها من عوامل جذب وعوامل جغرافية وصحية واجتماعية واقتصادية .

كما كان محمد سعيد داعية إلى الخلق الحميد ، ولا سيما في تبيانه عواقب الشر والأشرار ، وانتصار الخير والأخيار ، إضافة إلى ذلك فقد مكّن الطفلَ من عقيدته ودينه حينما عرض معتقدات بعض الأديان الموضوعة ، من مجوسية تؤمن بالنار من دون الله ، وبوذية ، تقدس حجارة لا تعي ساكنًا ولا متحركًا ، يُقَدّم تحت قدميها دماء بشر فضلهم الله على كثير ممن خلق تفضيلاً .

وقد رمى الأديب من رحلاته تعليم الصغار أسلوب العربية على وجهها السليم ، في وقت كانت فيه الدعوات الفرعونية والفينيقية لا تزال تؤثر على النفوس ، إلى غايات أخر كتوسيع مدارك الطفل وخياله ، وتحريك مكامن العواطف في نفسه ولا سيما العواطف الإنسانية والدينية والوطنية ، مما يتضح للقارئ بشكل مباشر وغير مباشر إبان قراءة الرحلات .

ومعاني الرحلات الخيالية والحقيقية تنسجم والغاية الخلقية والفكرية ، إلا أن هنات ارتكبها الأديب تؤثر على نفسية الطفل ، فليس من اللائق أن يوصم الأمي الذي لا يعرف القراءة والكتابة بالبهيمة [٢] . لأن هذا يجعل الطفل ينظر إلى أهله غير المتعلمين نظرة احتقار ، وكذلك لم يحسن الأديب في

---

(١) انظر (٣/٥٣) .

(٢) انظر (١/١٢١) .

تشبيه ثياب الرجل المخططة بجلد الحمار الوحشي وإن كان أوردها على سبيل النكتة [١] ، وتبريره الكذب وقت الشدة [٢] . وهل يكذب المرء إلا وقت حاجته ؟! .

***

والخيال في الرحلات جَمُحَ عن غايته أحيانًا فالطفل فيما بين الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره يميل إلى الواقع والتخلي عن أحاديث الجن والخرافة ، ومن هنا فقد جاءه حديثه عن النسانيس بعيدًا عن جو الطفل وخياله ، ومداركه .

ومن جهة أخرى فإن تأثير هذه القصص الخيالية لا يقتصر على الصغر وإنما يتعداه إلى ما بعد مرحلة الطفولة ، ولقد أدركها «وليد إخلاصي» هذا فقال معلّقًا على أضرار قصص «ألف ليلة وليلة» وما شابهها على مخيلتنا وتفكيرنا في الكبر :

رُبّينا على قصص الجن والأساطير ، وحكايا ألف ليلة وليلة نقلاً أو شفاهًا ، وقد كونت هذه الأشياء ثقافتنا ، وعقلنا الباطن بعكس [٣] ما يروجه بعض المفكرين ، فإن الضرر الذي أصاب الجيل من جراء ذلك النوع من الثقافة لا يصيبه في صلب تكوينه الثقافي ، ولا يؤثر عليه ، بل يؤثر على مخيلته، فقد أبعدته تلك الثقافة عن الرؤية العلمية التي افتقدتها أجيال وأجيال ، وإن الدعوة التي تستيقظ من حين لآخر تهاجم ذلك النوع الثقافي لم تفكر ذات يوم كيف أن هذه القصص والحكاية تشكل نبعًا لا يجف لثقافة طفولية جيدة ، فقط لو أنها استخدمت بطريقة مدروسة ومنهجية ، وأعيدت صياغتها من جديد بإحساس مستقبلي وواضح .

---

(١) انظر (٥٤/١) .

(٢) انظر (٨٧/١) .

(٣) والصحيح : على العكس والنص من جريدة الثورة : دمشق في ١٣/٨/٩٧٥ ع ٣٨٢٩ ص (١٠).

ولقد أعاد العريان صياغة رحلات سندباد المودعة في قصة «ألف ليلة وليلة» ووفق إلى حدٍ كبير فيها إلا أنه لم يستطع أن يتخلى عن الخرافات التي كانت سائدة في العصر العباسي منقولة إليه مع ثقافات الأمم الأخرى .

على أنه لم يُحسِن وصف المجتمع العربي الحالي أيضًا ، فقد جاء وصفه مشابهًا إلى درجة كبيرة ما كان عليه أجدادنا في عصر السندباد الأول ، وإن كان فيها حوادث تثبت أن القصة عصرية كاستخدام بطلها القداحة أو المولد الكهربائي لإيقاد النور عند الهنود المجوس ، فالمجتمع العربي في الرحلات مجتمع تجاري ينتقل فيه الناس برًا من قطر إلى آخر عن طريق القوافل وبحرًا على ظهر سفن تقلب في كل مرة ، يسافر فيها سندباد ويحمل إلى أرض غير مأهولة فيها أناس بدائيون ، وقد يكونون من آكلي لحوم البشر ، وقد ضرب صفحًا عن تحسن طرق المواصلات الحديثة ، وأثرها على الشعوب ، وهل يعقل أن يسافر امرؤ على مركب صغير في محيط واسع كالمحيط الهندي مثلاً .

١٣- بين الكتاب والمجلة

مرّ آنفًا أن الرحلات كانت تنشر تباعًا في مجلة سندباد ، ثم جمعها مؤلفها في كتاب ذي أجزاء أربعة يضم كل جزء رحلة من رحلات سندباد للبحث عن أبيه ، ومما لا شك فيه أن الوسيط الذي ينقل المادة إلى القارئ ذو أهمية في عرض المادة ، فتقديم قصة أو رحلة في كتاب يختلف عنه في مجلة أسبوعية تنشر مسلسلة في حلقات ، وذلك لأن للأمور الفنية لكلٍ منهما أثرها ، وبالتالي فإن النص يتباين بتباين المجال المعروض فيه إن كثيرًا أو قليلاً ، ولقد كان العريان على وعي بهذا ، فكان ينشر رحلاته في المجلة مقتصرًا على جزء وجيز من مادتها مرفقًا بالصور الملونة بألوان جذابة ، على حين حذف كثيرًا من هذه الصور ، وصغّر حجمها ، وغيّر بعضها ، وقدّمها دون ألوان حينما عرضها في كتاب ، كما زود المجلة بمقدمة وجيزة تلخص ما سبق نشره في الرحلة السابقة ،

وتصرّف في الفصول المختلفة فاختلف عددها ، فعلى سبيل المثال كانت فصول الرحلة الرابعة لا تتجاوز التاسعة والثلاثين ، بينما نشرت المادة نفسها في المجلة موزعة على أربع ومئة عدد في سنتين هما السنة الرابعة والخامسة من صدور المجلة ، بحيث تضم كل سنة اثنين وخمسين عددًا ، وعلى هذا فطول الفصل في الكتاب يزيد على طول العدد في المجلة ؛ أما مقدمة الكتاب فإنها تحوي موجز حياة سندباد فيما لا يتجاوز صفحتين .

وأما المادة العلمية فإنها لم تختلف في كليهما إلا في النادر الندر ، وأما الأسلوب الأدبي فإنه تباين قليلاً ، وهذا النص يوضح بعض ذلك ، وهو مقتطع من مجلة سندباد ومقارن مع الرحلة الرابعة (١) .

«أصبحت ذات يوم فإذا البريد يحمل إليّ رسالة خطيرة لم أكد [أفض غلافها وأقرأ سطورها] (٢) حتى انتفضت كالملسوع لأهيئ متاعي للرحلة الرابعة ...» .

كانت تلك الرسالة من [خال أختي] (٣) شمس زاد - ولم يكن فيها بعد التحية والأماني الطيبة إلا بضعة أسطر هي :

«كان أبوك يتمنى أن يراك [وإن لم يقتنع كل الاقتناع بأن له ولدًا لأنه لا يعرف إلا قمر زاد وشمس زاد] (٤) ، ولو كنت أتوقع ما حدث بعد سفرك لمنعتك من السفر ...

ردّ الدنانير المئة إلى أصحابها بأي وسيلة ممكنة ، وأتمنى أن أراك [قريبًا] (٥) قريبًا جدًّا» .

* * *

---

(١) النص من الرحلة الرابعة ص (٨ - ٩) .

(٢) ما بين قوسين ورد في الكتاب : أقرؤها .

(٣) ما بين قوسين ورد في الكتاب : جاسر خال أختي .

(٤) ما بين قوسين حذف من الكتاب .

(٥) ما بين قوسين حذف من الكتاب .

«قد أشعلت هذه السطور القليلة في قلبي نارًا وهاجت في رأسي عاصفة من [الأفكار] (١) ، [وإن لم أفهم منها شيئًا واضحًا ينير لي الطريق أو يكشف الخطة] (٢) . فلم أجد سبيلاً للخروج من حيرتي غير الاستعداد لرحلة جديدة» (٣) .

هذا النص يلقي لنا ضوءًا على جهد الأديب في تقديم الرحلات مطبوعة في كتاب ، فهو يشير إلى تعديله ليكون في متناول القراء الأطفال على مدى السنين ، لئلا يبقى حبيس المجلات التي يصعب على الطفل أن يحافظ عليها أمدًا ، إن تمكن من العثور عليها دائمًا ، وهو تعديل تناول غالبًا الأسلوب لا المادة العلمية .

*** *** ***

(١) سجلت في الكتاب : الفكر .

(٢) حذفت من الكتاب .

(٣) مجلة سندباد : السنة الرابعة ع ١ الرحلة ٤ ص (١٣ - ١٤) .

ثانيًا : العرب لاخريستوف كولمبس[1] .

١- أسباب التأليف :

إيمانًا من الأديب بسبق العرب المسلمين في مجالات عديدة من مجالات الحياة فقد عكف على البحث عن أول من ارتاد آفاق أمريكا بعدما قرأ في الأنباء العالمية أن بعض علماء الغرب كشفوا أن العرب سبقوا إلى الوصول إليها. وظل يبحث أمدًا حتى عرف أن أحد ملوك مالي القدامى أرسل ابنه في رحلة إلى غرب إفريقية فاستقر وأسرته وأحفاده في أمريكا الوسطى وبلاد المكسيك وحينذاك ألف كتابه «العرب لاخريستوفر كولمبس» ليعرّف أبناء أمته من الناشئة فضل العرب وجهودهم [2] ، ولينتزع من نفوسهم عقدة النقص التي رانت على نفوس العرب تجاه أوروبا ، ليكونوا أقوى عزيمة ، وأشد إيمانًا بأهميتهم وفضلهم على العالم كله .

٢- فكرة عامة عن القصة :

نشرت هذه القصة ضمن سلسلة المغامرات التي عرضت في مجلة سندباد ، على غرار الرحلات أعدادًا متتابعة ، ثم جمعت في كتاب صدّره بإهداء سندباد له ، وتضم صفحاتها البالغ عددها ستين ومائة من الحجم

---

(١) يرد هذا الاسم أحيانًا «خريستوفر كولمبس» كما سجل على غلاف الكتاب للأديب ، وأحيانًا كريستوفر كولمبس كما بدا على غلاف كتاب صاموئيل إليوت موريسون : كريستوفر كولمبس المكتشف العظيم : ترجمة فوزي قبلاوي ، ومراجعه أحمد زكي العرابي لكن اسمه في الصفحة الأولى من كتاب العريان ، وفي مضمونه ورد خريستوف ، وكذلك نشرة في مجلة سندباد ، فآثرته على الأول والثاني ، ولعلّ الناشر تصرّف بالعنوان ، ووافقه الاديب على ذلك ، دون أن يغيّر اسمه الداخلي انظر مثلاً ص (١٠٣) بعنوان خريستوف كولمبس .

(٢) انظر مجلة الرائد س ١٩٦٤ ع ٩ : أحمد عبد الحميد عنارة بعنوان نجم هوى الأستاذ سعيد العريان في ذمة الله .

المتوسط ، والمزينة بصور وخرائط شارحة ، منسجمة ومتطلبات الأطفال القراء - ستًّا وعشرين فصلاً تقسم - برأيي - إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : ويتحدث عن محاولة عرب مالى اقتحام المحيط الأطلسي للتعرّف على المناطق التي تقع غربه ، وإخفاقهم في ذلك .

القسم الثاني : يحكي لنا رحلة الفتية المغرورين إلى أمريكا ، وعودتهم إلى وطنهم حاملين ما يؤيد اكتشافهم لها .

القسم الثالث : يقص علينا الاكتشاف الرسمي لأمريكا قبل خريستوف كولمبس مدعمًا من الدولة الإسبانية أنذاك .

وهناك مقدمة وخاتمة ككل كتاب ، وتلك المقدمة العلمية الطويلة ، وهذه الخاتمة التي لا تناسب القصص ، والتي هي أقرب إلى نهايات الكتب العلمية منها إلى خواتيم القصص ، ثم هذا التعليق الذي أطلق عليه الأديب اسم الخاتمة (١) . كل هذا يجعل القصة أقرب إلى الكتاب منها إلى القصص الفني ، لكن وجود عنصر خيالي ، بقَدَر . وحوار يجري بين الشخصيات ، إضافة إلى ما ذكره الأديب من أن «كل ما تضمنته هذه القصة من الحوادث الكبار وذكرها العرب القدماء ...» يجعلني أنسبها إلى فن القصص ، وبالذات قصص الحوادث والمغامرات ذلك لأنها تقسم كما أسلفت إلى أقسام ثلاثة ينفصل بعضها عن بعض لولا رباط معنوي يربط بين أجزائها ، وهي محاولة عرب مالي والفتية المغرورين ثم خريستوف كولمبس اكتشاف ما وراء بحر الظلمات ، أو الوصول إلى الهند من طريق الغرب ، وهناك خيط خيالي يربط بين القسمين الأولَيْن قوامه رؤية الفتية المغرورين شيخًا هرمًا في أرض مالي كان والد أحد المتطوعين لاكتشاف أراض جديدة مع ملك مالي ، وكان يعمل ترجمانًا بين العرب والهنود الحمر (٢) .

---

(١) انظر العريان لاخريستوف كولمبس ص (١٥٧) .

(٢) انظر العريان لاخريستوف كولمبس ص (٩٠ - ٩١) .

٣- موجز القصة :

تبتدئ القصة بمقدمة عرض فيها جهل العالم قبل خمسمئة سنة القارة الأمريكية ثم انتقل بعدها إلى الحديث عن الفتوحات الإسلامية التي وصلت إلى إسبانيا بقيادة طارق بن زياد ، ثم تحدث بإيجاز عن أمجاد العرب في الأندلس ، وعن التقدم العلمي الذي أحرزوه في ذلك الحين ، والذي كان من آثاره انتشار فكرة كروية الأرض بين صفوف المثقفين ، وذكر أنهم كانوا يؤمنون بها ، ويفكرون باختراق المحيط الأطلسي للتعرف على أراضٍ جديدة تقع غربه لينشروا في ربوعها الرسالة المحمدية رسالة الحق والخير والسلام .

وانتقل بعد ذلك إلى عرض القصة ، فتحدث عن محاولة بحّارة السودان الغربي ، أو مالي قديمًا اكتشاف ما وراء بحر الظلمات ، بعدما علم سلطانه علم اليقين بوجود أرض هناك ، إلا أن هؤلاء غرقوا جميعًا بسبب عواصف بحرية شديدة إلا واحدًا منهم عاد على ظهر سفينة ليخبر الملك بغرق السفينة . فلم يصدق ما جاء به من أنباء ، وأراد أن يقوم بنفسه بهذه المهمة الجلّى ، وأمّر على البلاد موسى بن أبي بكر ، وجهّز أسطولاً ضخمًا يضم مغامرين من أهل البلد ، وقاد هذه المحاولة ، ومضت فترة تقارب ثلاث سنوات لم يرجع فيها أحد ، ولم تصل أنباء من أحد ، فبويع الأمير موسى سلطانًا ، وأصدر أمرًا يحذّر من ركوب البحر ، وبتوليه الحكم تنتهي المحاولات الأولى من الاكتشاف .

أما المحاولة الثانية فقد قام بها نفر ثمانية من أهالي لشبونة ، كانوا أولاد عمّ عرفوا أن الأرض كروية ، فأرادوا أن يطّلعوا على ما وراء بحر الظلمات ، وعلى الرغم من أن القوم حاولوا تثبيط هممهم إلا أن عزيمتهم كانت أقوى من كل محاولة ، وأقلعوا على ظهر سفينة اتجهت غربًا ، واستمرت اثني عشر يومًا في وجهتها هذه ، ثم حوّلتها إلى الجنوب الغربي اثني عشر يومًا آخر ، فوصلوا إلى جزيرة دعَوْها جزيرة الغنم لما رأوه من كثرة هذا الحيوان في مراعيها ، ثم تابعوا

تسيارهم اثني عشر يومًا أيضًا ، فإذا بجزيرة آهلة بالناس والعمران والمزروعات وهناك أسروا وحُبِسوا - ثم أتاهم ترجمان عرف غايتهم - فاطلع الملك عليها ، ولقوا هنالك معاملة حسنة قبل أن يطلق سراحهم ، وتم هذا بأن نقلوا معصوبي الأعين على ظهر مركب يقوده فتية من أهل البلد ألقوهم على شاطئ بحر مقيّدين ، وتعاقبت عليهم الساعات الطوال وهم على هذا الحال ، ثم أخذوا يصيحون بصوت عال فالتفت إليهم أهل الشاطئ وحلوا وثاقهم ، وخلّوا سبيلهم بعد أن عرفوا قصتهم ، وعلموا أنهم على الشاطئ الغربي من إفريقيا في أقصى الجنوب من بلاد المغرب العَربي ، وأن بينهم وبين موطنهم مسيرة شهرين في البادية .

واستيقظت مدينة لشبونة ذات يوم ، وإذا بالفتية الذين كانوا أطلقوا عليهم اسم المغامرين يعودون إلى ديارهم ، فتقاطر الناس أفواجًا أفواجًا على المسجد يتسمَّعون أنباءهم ، وكانوا بين مصدق ومكذب ، ذلك لأنهم لم يصطحبوا معهم ما يؤكد أقوالهم .

وتنقل الخبر بين أرجاء الوطن وطرق مسامع الأمراء والملوك ، إلا أن هؤلاء كانوا في شغل عن ذلك بسبب الحرب الدائرة بينهم وبين الإسبان ، واكتفى القوم بتسجيل رحلتهم باللغة العربية والأجنبية ، وظلت قصتهم مدار حديث السامرين ، وظل شارع الفتية المغرورين الذين كانوا يقطنونه ، والذي سمي بذلك تذكارًا مشيرًا إلى المهمة العظيمة التي قاموا بها ، ومضى قرن من الزمان ، وأشرق القرن الخامس عشر ليعيد إلى أسماع العالم نبأ محاولة جديدة يقوم بها خريستوف كولمبس .

وتعد محاولته هذه الثالثة من نوعها ، وكان هذا الملاح الجريء من أهالي جنوة الإيطالية ، قد سمع قصة المسلمين فتمنى لو تم ذلك على يديه ، واتصل بملك البرتغال فلم يلق لديه قبولاً ، وقبل بَعْدُ الملك فرديناند بعد أن أقنعته زوجه بضرورة سبق المسلمين إلى ذلك حتى لا يمتلكها هؤلاء فتقوى شكيمتهم

ويقضون على نفوذ الإسبان وغير الإسبان ، وجهز له ثلاث سفن ، وقد لاقى خريستوف مصاعب جمة حتى استطاع أن يجد بحّارة يساعدونه في مهمته ، وأقلعت مراكبه في عام (١٤٩٢) ، واستمرت تشق طريقها عبر المحيط ، ومرّ أمد طويل قبل أن يروا فيه يابسة ضجّ خلاله البحارة ، وتآمروا للقضاء عليه لولا أن هدّأهم بحار يدعى أفراني ، وحين ألقت السفينة الأولى مراسيها على الشاطئ رفع الربان علم إسبانيا ، وسمّاها الهند الجديدة اعتقادًا منه أنه وصل أرض الهند ، وأطلقوا على أهليها اسم الهنود الحمر ، لما يتصفون به من بشرة حمراء ، واستطاع خريستوف ومن معه أن يؤانسوهم ويطمئنوهم ، وعرفوا منهم أن في الجنوب ذهبًا كثيرًا ، فاتجهوا نحوه ، وكانت كوبا أكبر الجزر التي اكتشفوها ، وعندها فقدوا سفينة من سفنهم ، فاضطر خريستوف أن يبقي عددًا من البحارة في إحدى الجزر بعد أن شيد لهم قلعة ، وطمع هؤلاء بالذهب المتوفر لديها بكثرة ، ثم اصطحب معه إلى أرض الوطن هنودًا ، ومزروعات غير معروفة في أوروبا ، ووصله في سنة (١٤٩٣) فوثق به الملك ، وجهز له حملة جديدة ، وتقاطر المتطوعون من أنحاء البلاد ، ولما عاد حملته الثانية وجد بحارته قد أبيدوا عن بكرة أبيهم لأنهم حاولوا استعباد السكان الأصليين .

٤- العمل القصصي :

تعد هذه القصة من قصص المغامرات والحوادث التي استقت معينها ، وحوادثها ، وشخصياتها ، من التاريخ لتعرض محاولات ثلاث في فترات شتى لاقتحام بحر الظلمات ، وهذه الحوادث متطابقة مع ما جاء في كتب التاريخ عن رحلة أهل مالي [١] ، والفتية المغرورين [٢] ، واكتشاف خريستوف

---

(١) انظر لذلك الدكتور : زكي محمد حسن / الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ص (٥٢ - ٥٣) نقلاً عن صبح الأعشى للقلقشندي .

(٢) انظر الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ص (٤٦ - ٥١) .

كولمبس [١] ، مع تباين وجيز بين الفن والعلم ، فالعريان يذكر أن رحلة العرب كانت في القرن الثالث عشر على حين يروي الإدريسي أنها كانت في القرن العاشر [٢] ، والأديب يؤكد دور العرب في محاولة خريستوف الاستكشافية ، على حين ينفي ذلك صاموئيل إليوت ، ويذكر أن الغرباء عن الإسبان هم كولمبس نفسه ، وجنويّ واحد ، وبرتغالي ، وآخر من البندقية ، ولم يروِ أن العرب اشتركوا في ذلك [٣] .

والمؤلف يحكي أن إفراني الفتى العربي الأصل بذل جهودًا واسعة في سبيل تهدئة الثائرين ، حتى إنه وافق على قتله إن لم تُر اليابسة في غضون أيام ثلاثة ، وكان الساعد الأيمن لخريستوف ، وهو أولّ من رأى اليابسة . إذ كان يقوم بدور المراقبة على برج السفينة ، على حين يذكر كريستوف أن «أوفيدو» كان يهدئ البحارة ، وأنه وعدهم بالعودة إن لم تُر الأرض خلال ثلاثة أيام ، وأن «رودريفودي تريانا» كان أول امرئ شاهد البرّ وكان مراقبًا على البرج»[٤].

على أن هذا الخلاف العلمي لا يذكر إلا جانب الحقيقة التي بنيت عليها القصة أما العنصر الخيالي في حبكة القصة فهو ضئيل إذا ما قورن بالعنصر الحقيقي ، وهو يقوم على :

١- قصة العربي الذي رافق ملك مالي في رحلته ، وشاهد ابتلاع الموج صحبته ونجا هو بأن قذفه الموج إلى شاطئ جزيرة حُجِل إلى مليكها ، وسار ترجمانًا عنده [٥] .

وهناك في الطرف الآخر شيخ همّ انتظر عودة ابنه أمدًا طويلاً دونما جدوى ولما سمع نبأ الفتية المغامرين جاء يسعى إليهم يسألهم عن خبره ، وكان

---

(١) انظر صاموئيل إليوت موريسون : كريستوفر كولمبس : المكتشف العظيم .

(٢) الرحالة المسلمون ص (٤٧) ، والعرب لاخريستوف كولمبس ص (١٠٠ - ١٥٦) .

(٣) العرب لاخريستوف ص (١١٧ - ١١٨) . وكريستوفر كولمبس ص (٤٥) .

(٤) انظر العرب لاخريستوف (١٢٨ - ١٣٦) وكريستوفر ص (٥٨ و ٦٠) .

(٥) انظر قصة العرب لاخريستوف (٦٧ - ٧٥) .

صدفة هو والد هذا المترجم [١] .

٢- قصة إفراني الذي كان من المقربين إلى خريستوف بعدما عمل على إنقاذه من مؤامرة حيكت ضده ، ثم حاول أن يقنع البحارة الذين ملوا الانتظار ، وصمموا على العودة إلى وطنهم قبل أن يهلكوا جوعًا وغرقًا وقد وعدهم بتقديم رأسه للسيف إن لم يصلوا إلى برّ ينزلون عليه خلال مسيرة أيام ثلاثة ، وكان رأى علامات تبشر بظهور يابسة ، وقد تحققت أمنيته في اللحظة الأخيرة من الموعد المضروب [٢] ، وهذه القصة لها ما يؤيدها ، لكن حوادث خيالية كثيرة وردت فيها .

٣- حوار يجري بين الشخصيات كالذي تُبودل في المسجد بين الفتية المغرورين وأهالي بلدهم الذين وصموهم بالطيش والحمق والغرور [٣] ، وبين كولمبس ومن يقنعهم بالسفر معهم للاستكشاف ، وبين الإسبان بعضهم مع بعض حول الغاية نفسها [٤] ، وموضوع الحوار ثبت تاريخيًا إلا أن الأديب عرضه بطريقة تجذب القراء الأطفال ، فأضفى عليه من ابتكاره شيئًا كثيرًا .

وحبكة القصة منفصلة لانقسام القصة إلى أجزاء ثلاثة ، لكن خيطًا يربط بين أطرافها ويشدها ، قوامه رغبة الثلاثة في اكتشاف مواطن جديدة ، وإن تباينت غايتهم .

ولقد اعتمد الأديب في حبكة قصته على عناصر تشويق متعدده منها :

قصة العربي المترجم وأبيه ، وقد وصف الأول وصفًا مؤثرًا حين جعله شديد التلهف لرؤية وطنه لولا موانع تحول ، ونعت الأب بالمشوق إلى النظر إلى ابنه قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة ، وصور بكاءه لمّا علم أمر فقيده [٥] .

---

(١) انظر المرجع السابق ص (٨٨ - ٩٠) .

(٢) المرجع السابق ص (١٢٨ - ١٣٦) .

(٣) المرجع السابق ص (٩٦ - ٩٨) .

(٤) انظر القصة (١١٦) .

(٥) انظر القصة ص (٦٧ - ٥٧) و (٨٨ - ٩٠) .

ومنها : حديث أهالي لشبونة في المساجد عن الفتية المغرورين ، ودفاع هؤلاء عن أنفسهم دفاعًا علميًا يؤكد صحة نظريتهم .

ومن ذلك أيضًا ثورة البحارة على خريستوف ، ومؤامراتهم ضده ، وسعي إفراني لإحباط المكايد .

ولعل بروز النزعة العربية والإسلامية إحدى عناصر التشويق في القصة، إضافة إلى ما تقوم به من خدمة الأهداف التي يرمي إليها الأديب من عرض التاريخ قصصًا جذابة تنير تاريخ الأجداد ، وتعيده إلى الأذهان بصورته الحية المشرقة ، صورة تجعل الأبناء يعتزون بالماضي المجيد الذي سطره القدامى بأحرف وضاءة زاهية ، فيتخلّوْن بعدها عن عقدة النقص التي يحسون بها تجاه الغرب .

ومما يؤخذ على مقدمة القصة كثرة الحوادث التاريخية التي عرض فيها جهل العالم بالقارة الأمريكية قبل خمسمئة عام ، وأمجاد العرب والمسلمين في الأندلس ، والغاية التي يسعى إليها هؤلاء من اكتشافاتهم ، ولعل هذه المقدمة التاريخية الطويلة لا تلائم الفن القصصي وإن أدت في نهايتها إلى الدخول في صلب الموضوع .

وتسير الحوادث بعد هذه المقدمة سيرًا بطيئًا تعرض خلاله محاولتي ملك مالي خوض غمرات المحيط ، ثم رغبة الفتية المغرورين ، وتسير الهوينى بنا حتى تصل إلى سجنهم ، فنأسى لضياع أتعابهم ونظن أنهم سيهلكون دون أن يدري بهم أحد ، وإذا بالحقيقة تتكشف ويعودون محمولين على ظهر سفينة ... وتنحدر الحوادث حتى نهايتها بمحاورة بني قومهم لهم ، وهم بين مصدق ومكذب ..

وتعود الحوادث ثانية تخطو خطواتها وئيدة حينًا . سريعة حينًا ، مع محاولة خريستوف إقناع الملك .. ويسير الركب بمن فيه في خضم المحيط دون أن يثمر ثمرته .. ويضج البحارة ، وتعلو الأنفاس ، ونتوقع إخفاق هذه المحاولة

أيضًا ، وإذا بأفراني يهدئ الثائرين ، ثم يبشر برؤيا الأرض الجديدة في اللحظة الأخيرة للموعد المضروب فتحل العقدة ويكف الثائرون وتتحدر الحوادث حتى خاتمتها ليرفع العلم الإسباني دليلاً على نجاح المهمة ، واستعمار الأرض الجديدة، واتخاذ أهلها عبيدًا للسادة الأوروبيين الذين نزحوا إليها .

وتختم القصة عامة كما بدأت بالحديث عن الأمجاد العربية ، والفارق بين غاية المسلمين في فتوحاتهم واكتشافاتهم وبين الأوروبيين في أمانيهم الاستعمارية التي حققها لهم خريستوف يوم كان العرب متناحرين ، يلتقمهم أعداؤهم لقمة بعد لقمة ، ولولا ذلك لكان لأمريكا اليوم شأن آخر ، بل لكان العالم كله وطنًا عربيًا .

وخاتمة هذه القصة كبدايتها تاريخية ، تصلح للكتب العلمية أكثر مما تصلح للقصة ، ومن هنا فقد آثرت أن تكون الخاتمة نهاية الحوادث ، وسميت ما دعاه الأديب خاتمة بالتعليق التاريخي ، كعادته في كتابة القصة القصيرة [١] ، وبهذا تقرب من الفن القصصي .

ولقد اتبع الأديب في عرض حوادثه الطريقة التمثيلية ، ويكاد السرد المباشر يقتصر على عرض الحروب بين العرب والأسبان [٢] ، وعلى وصف مسيرة البحارة العرب والأجانب [٣] وعلى بعض تعليقات من الأديب ، على نحو قوله :

«أمريكا ... التي يتردد اسمها اليوم على كل لسان ، وتبلغ شهرتها كل أذن ... لم يكن لها وجود منذ خمسمئة سنة ، لأنها كانت أرضًا مجهولة ... نعم لقد وصل العرب إلى تلك الأرض قبل خريستوف كولمبس بأكثر من مئتي سنة، ولكنهم لم يرفعوا عليها راية ، ورفع عليها خريستوف كولمبس فنُسب إليه دون غيره

---

(١) لمزيد من الاطلاع ينظر كتاب فن القصة عند محمد سعيد العريان للمؤلفة .

(٢) انظر القصة ١٢ و ١٤٠ - ١٤١ .

(٣) انظر القصة (٩٢) : عودة الفتية إلى لشبونة .

فضل ذلك الاكتشاف ! .

وكان وصول خريستوف كولمبوس في أول جزيرة قابلته من أمريكا في يوم الجمعة الثاني عشر من أكتوبر سنة ١٤٩٢ . وهو أول تاريخ أمريكا كما يذكره الجغرافيون الأوربيون ، ولو أنصفوا لذكروا أن تاريخ أمريكا يبدأ قبل ذلك اليوم بنحو مئتي سنة ولكن العرب فى ذلك التاريخ البعيد كانوا مشغولين بشيء أهم من ذلك أنساهم تسجيل التاريخ الذي وصل فيه مكتشفهم إلى الجزر الأمريكية، فقد كانت أوروبا كلها قبل ذلك الوقت تحارب العرب .

كانت المعارك الطاحنة تدور بين الإسبان والعرب في إسبانيا ...

وكانت معارك أخرى تدور بين الصليبين والعرب في مصر والشام ...

... فأين ومتى يجدون الفرصة لتسجيل اكتشاف أرض جديدة وهم في حروب متصلة لا يضمنون معها بقاءهم في الأرض التي يعيشون فيها ؟

ومن أجل ذلك لم يكتبوا ذلك التاريخ ، ونسب المجد كله لخريستوف كولمبس ، ولإسبانيا دون العرب وهم الذين سبقوا خريستوف كولمبس وإسبانيا إلى اكتشاف تلك الأرض الجديدة [١] .

فهنا نجد التعليق الموجه الذي يبين قصد المؤلف من قصته يتخلل ثنايا الحوادث ، فلقد ورد تعليق عن اكتشاف أمريكا بعد رؤية إفراني لها ، ثم حكى لنا تاريخ الوصول ، ثم أتم تعليقه عن نسبة هذا الاكتشاف إلى خريستوف دون العرب وهم أحق به وأهله ، ثم عاد بعدها ليحكي لنا رؤية خريستوف وصحبه للهنود الحمر .

إلا أن هذا يكثر في مقدمة القصة وخاتمتها ، وقد يأتي عن طريق الحوار على نحو ما سيتضح .

* * *

(١) انظر القصة (١٣٩ - ١٤١) .

٥- الحوار :

عمد الأديب إلى الحوار يمهد به للحوادث ، وينميها عن طريقه ، وهذا الحوار يشير إلى أن محاولة أخرى لاكتشاف ما وراء بحر الظلمات ستخرج من أرض مالي : «وكان الأمير موسى بن أبي بكر من أحكم أصحاب الملك رأيًا ، وأعظمهم فكرًا ، فابتدأ قائلاً : لقد حاولت يا مولاي محاولة عظيمة يكتب الله لك ثوابها ، ولقد فهمتُ من بعض ما سمعت من حديث مولاي أنه يريد أن يحاول محاولة ثانية يرجو أن تنتهي بتوفيق الله إلى خير ، ولكني أخشى أن تكون نتيجة المحاولة الثانية مثل نتيجة المحاولة الأولى ، فإن البحر غدَّار ، ولسنا نعرف من أسراره إلا القليل .

قال الملك إنني لا أرى رأيك فإن إخفاق محاولة لا يجوز أن يكون سببًا إلى اليأس ، بل لعله أن يكون سببًا إلى السعي لاستكمال أسباب النجاح في محاولة أخرى ، فإن التجارب القاسية هي التي تعلم ..

قال الأمير : صدقت ونطقت بالحكمة يا مولاي ، ولكني أخشى أن يكون أثر هذه التجربة الأليمة في نفوس الناس غير ما تظن يا مولاي ، فلا تجد منهم من يتطوع ليموت غرقًا في قاع بحر الظلمات !

فرفع الملك صوته قائلاً : أنا أتطوع ... فهل يأبى الشجعان من شعب مالي أن يشاركوني في المغامرة لنرفع راية العرب في غرب المحيط ؟

قال الأمير ، ولكن الشعب يا مولاي لا يرضى أن يتعرض ملكه المحبوب لنتائج هذه المخاطرة !

قال الملك : لابد من تنفيذ ما اعتزمته ، وستكون أنت نائبي على عرش مالي حتى أعود مظفرًا إن شاء الله ...» [1] .

فهذا الحوار المتبادل بين ملك مالي والأمير موسى يمهد لمحاولة جديدة سيقوم بها سلطان هذه الدولة مع من يتطوع لاكتشاف أرض جديدة ، ونشر

---

(١) القصة (٢٥ - ٢٧) .

راية العرب فوق ربوعها .

على أن الحوار في هذه القصة يمتاز بملاءمته للشخصيات التي تتكلم به ، فالفتية المغرورون يناقشون الناس في المساجد ، ويؤكدون لهم بالبراهين والأدلة كروية الأرض وإمكان رؤية أرض جديدة تتوارى خلف المحيط الأطلسي ، بينما ينكر هؤلاء عليهم رأيهم ، ويهزؤون منهم [1] ، والبحارة يثورون على كولمبس ، ويسخرون من مزاعمه التي ترى أنّه من الممكن الوصول إلى الهند عن طريق الغرب ، على حين كان فتى عربي يقنعهم بذلك ، ثم يشتد الخصام والجدل بينهم ، ولنقرأ قول الأديب يصف هؤلاء وهؤلاء من خلال أحاديثهم :

«ولم يكد شاطئ إسبانيا يبتعد عن عيونهم حتى اشتد بهم القلق ، وغلبهم الخوف على أنفسهم ، كأنهم مسوقون إلى الموت ، وبلغ القلق بواحد منهم أشده فقال في يأس وغضب :

والله لقد رمينا بأنفسنا إلى الهلاك بأيدينا حين أطعنا ذلك الإيطالي الدجال ، وصحبناه في هذه الرحلة المشئومة !

فأجابه آخر : وهل كانت صحبته باختيارنا ؟ وكيف نختار صحبة جاهل يزعم أن الهند في غرب المحيط ، والهند وراء ظهورها في الشرق ؟

فأجابه بحار عربي من المتطوعة : ولماذا لا نصل إلى الهند من الغرب ما دامت الأرض كرة ؟ أرأيتم النملة تمشي على البرتقالة من جانب إلى جانب لا تحرف يمنة ولا يسرة فتصل من غرب البرتقالة إلى شرقها ومن شرقها إلى غربها ؟ فقاطعه البحار الأول قائلاً في شراسة :

اسكت أيها العربي ، فما نحن نَمْل مثلك ، ولا الأرض برتقالة !

قال العربي بل نحن جميعًا على الأرض كالنمل على البرتقالة ، ولو أن نملة عاقلة قالت لنملة أخرى جاهلة : إن هذه البرتقالة التي تدبِّين عليها كرة لسخرت من قولها كما تسخر أنت من قولي ، لأنها جاهلة لا ترى من سطح

---

(١) انظر القصة (٣٥ - ٤١) .

البرتقالة إلا ما تحت قدميها !

فغضب البحار الإسباني وهبّ واقفًا وهو يقول في حدة : أتبلغ بك الجرأة أن تصفني بالجهل ، وتشبهني بالنملة ؟ ثم همّ به ليضربه ، ولكن البحارة حالوا بينهما ، وفضّوا المعركة [1] .

فالبحارة بين متطوع من أجل المال ، وآخر بدافع الإيمان بكروية الأرض وإمكان الوصول إلى الهند من الغرب ، وثالث لم يكن له خيرة من أمره في مرافقة خريستوف يدور بينهما جدل يؤيد فيه الثاني - العربي - رأيه بالأدلة العلمية ، على حين أخذ الغيظ مجامع لب الثالث فأصمّه ، وأعمى فؤاده فلم يفهم إلا أن الأرض برتقالة والناس عليها نمل فحنق واغتاظ وأبدى شراسته وهم بالبطش بالعربي لولا أن حال بينهما البحارة ، ومن هنا كان الحوار ملائمًا للشخصية ، كما أراد الأديب أن يجعلها معبرة عن موقفه من العرب والإسبان من خلال القصة .

ومن المثال السابق يتضح لنا أن جمل الحوار العلمي ، والمناقشات الفكرية تطول وتهدأ نبراتها كما في تشبيه كروية الأرض بالبرتقالة ... على حين تقصر الجمل التي تدل على انفعال لتلائم الحالة النفسية التي تصاحب المتحدث «اسكت أيها العربي ، فما نحن نمل مثلك ، ولا الأرض برتقالة ... أتبلغ بك الجرأة أن تصفني بالجهل ، وتشبهني بالنملة ...» .

ومن مميزات الحوار أيضًا بساطته في أفكاره ، فقد جعله الأديب يناسب عقلية الطفل القارئ ، فليس فيه تعقيد الفلاسفة والعلماء ، وإنما يدل على فكرته بأمثلة تنسجم ومستوى القراء ، ومداركهم كتشبيهه الآنف الذكر الأرض بالبرتقالة ، والناس عليها بالنمل يدبّون عليها .

* * *

---

(١) القصة (١٢٠ - ١٢٢) .

٦- الأسلوب

يميل أسلوب العريان في هذه القصة إلى اللين والسهولة خلافًا لرحلاته ، فهو هنا يؤثر اللفظ السهل الذي يكثر وروده في لغة الأطفال والناشئة وذلك على نحو قوله : تسلقها ، راكبين ، ساقوهم ، في قوله : «واقتربت الزوارق من السفينة حتى لاصقتها فتسلقها الرجال من جوانبها ، وركابها غافلون ، فما هي إلا لحظات حتى رأى الفتيان الثمانية أنفسهم أسرى على ظهر سفينتهم في أيدي أولئك الذين كانوا راكبين الزوارق ... لا يدرون شيئًا من أمر أولئك الرجال الذين ساقوهم مقيدين» (١) .

فالأسلوب هنا أسلوب يناسب الصغار في تراكيبه وفي لغته ، وقد شرح الأديب وأطال للإيضاح .

وهذا نص آخر مقتطف من وصف الفتية المغرورين :

«وكان أكثر الناس يصفونهم بالغرور وبالطيش والحماقة ، ولكنهم لم يكونوا يبالون بما يصفهم به الناس ، فقد كانوا على إيمان عميق بأن الأرض كرة كما تعلموا في المدارس العربية ، ومادام الأمر كذلك فلابد أن يكون في غرب هذا المحيط أرض أخرى ، ولابد أن يصلوا إليها ويكتشفوها ويعلّموا أهلها لسان العرب ودين العرب .

وذات يومًا كان بعض أهل المدينة جالسين في المسجد كعادتهم بعد كل صلاة فأخذوا يتحدثون في شأن هؤلاء الشباب الثمانية ، وما اعتزموه من أمر الرحلة في المحيط ، فبينما هم في الحديث إذ أقبل على المسجد للصلاة شاب من هؤلاء الشبان فلما عرف موضوع حديثهم استأذنهم في الكلام فأذنوا له» (٢) .

* * *

(١) القصة (٥٢ - ٥٣) .

(٢) القصة (٣٨) .

فهنا نرى تكراره «يصفونهم ... بما يصفهم به الناس» و «بأن الأرض كرة .. وما دام الأمر كذلك» و «أرض أخرى ولابد أن يصلوا إليها ، ويكتشفوها ، ويعلموا أهلها .. ، وكذا تركيب وذات يوم ... جالسين كعادتهم، فبينما هم في الحديث .. فلما عرف موضوع حديثهم» .

هذا التكرار اللفظي أو المعنوي ، وهذه التراكيب التي تكثر في تعابير الصغار تدل على مدى الجهد الذي كان يبذله الأديب ، وهو من الأسلوبين - في سبيل قرائه الصغار ، فليس من السهل لمن كان تعود الجزالة والقوة أن ينزل إلى المستوى اللغوي الطفولي ، ولكن ليس في الأمر ما يعجب إذا عرفنا خطته ، وهي أنه كان يكتب ثم يلقي على أولاده الصغار ما كتبه ، ويسألهم عما فهموه ، ليرى رأي العين مدى الاستجابة إلى ما يكتبه [١] .

إضافة إلى ذلك نرى تقسيم الجمل تقسيماً موسيقيًّا يجذب القراء بتوازنه، وبما يضفيه على النص من نغمة موسيقية محببة .

وهذا النص يوضح لنا خصائصه الأسلوبية جميعًا بما فيها من تكرار وإيقاع وتفضيل للحوادث والأفكار ، ويعرض عليهم مشهدًا حيًّا يصور حال الفتية في جزيرة الغنم :

«وأخذوا يجوسون خلال تلك الجزيرة التي وصلوا إليها ، فإذا أعشاب برّية نامية ، وأشجار ذات ثمار غريبة ... ولكن الذي لفت نظرهم أكثر من غيره هو كثرة الغنم في الجزيرة ، ففي كل مكان معشب قطيع سارح بين كباش ذات قرون ونعاج ذات ألبان ، وحملان صغيرة لا تعرف النطّاح ، وكلها سارحة بلا راع في أمان واطمئنان لا تخشى عصا الراعي ، ولا سكين الجزار ، ولا عدوان الذئب !

... وأحس الفتيان بالجوع فاصطادوا حملاً وذبحوه ، وسلخوه ، وغسلوه في ماء العين ، ثم أوقدوا نارًا وشَوَوْه وتهيؤوا للأكل ، ولكنهم لم يكادوا

---

(١) مقابلة مع ابنه في ٢٩/٦/٩٧٤ .

يضعون أول مضغة منه في أفواههم حتى لفظوها كارهين ، فقد كان لحمًا مرًّا كريه المذاق ، لا يسيغه أحد !» [1] .

فهنا تتضح سهولة الألفاظ ، فلا كلمة تحتاج إلى شرح إلا قوله : «يجوسون» . وهي تفهم من السياق . كما نلاحظ التكرار بالمفردات والجمل ليشرح الحادثة أكثر ويؤكد الفكرة التي يريدها : «الأغنام سارحة بلا راع ، في أمان واطمئنان ، لا تخشى عصا الراعي ، ولا سكين الجزار ، ولا عدوان الذئب» .

واللحم مر ، كريه المذاق لا يسيغه أحد .

فكلا التكرارين يؤديان معنى واحدًا .

كما نلاحظ الإسهاب كقوله : «اصطادوا حملاً ، وذبحوه ، وسلخوه ، وغسلوه ، ثم أوقدوا نارًا ، وشووه ، وتهيؤوا للأكل» هذا التفصيل مما يلائم الصغار .

ويبدو التناغم الموسيقي في قوله : «فإذا أعشاب برية نامية ، وأشجار ذات ثمار غريبة» بين : أعشاب وأشجار ، وبرية ونامية ، وفي قوله : ففي كل مكان معشب قطيع سارح ، بين كباش ذات قرون ، ونعاج ذات ألبان ، وحملان صغيرة لا تعرف النطاح ، إذ يلاحظ التنوين في : قطيعٌ سارحٌ . كباشٍ والمد في آخر كل كلمة انتهى بها الجزء مسبقة بكلمة ذات أو ما يعادلها موسيقى : كباش ذات قرون ، نعاج ذات ألبان . حملان .. لا تعرف النطاح . سارحة في أمان . فكلمة «تعرف» تتلاءم مع «ذات» ولا سيما أن العين خفيفة ، فكأنها ضاعت مع حرف الراء التالي المجاور لها ، وقد أعطى هذا توازنًا أشبه التوازن العروضي في الشعر ، على الرغم من بساطته .

وكذا في قوله : سارحة بلا راع ، في أمان واطمئنان تبدو النغمة الحلوة في المد ثم التنوين .

---

(١) القصة (٤٦) .

وكذا في : لا تخشى عصا الراعي . ولا اسكين الجزار ، ولا عدوان الذئب إذ يبدو الجمال في إدغام عصا الراعي حينا تقرأان معًا ، ثم في سكين ، عدوان . الراعي . الجزار ، ثم في الازدواج الناشيء من التراكيب الثلاثة .

هذه الموسيقية ، وذلك التقسيم ، وذانك الشرح والتطويل يدل على براعة الكاتب في عرض ما يريده للصغار في لين وحبك جمل عن بصيرة ، واهتمام بالطفل الذي تجذبه النغمة الحلوة ، وتحثه على المطالعة ، وتؤثر في نفسه فتكون مساعدًا لبحث الغرض الذي كتبت من أجله هذه المغامرة .

ولقد آثر الأديب الفصحى لغة يسجل بها قصته ، لأنه يبغي تعليمها للناشئة ، فهم جيل المستقبل ، وعليهم مسئولية توحيد العرب ، وهي الرباط بين بنيهم ، والمجلة التي نشرت بها القصة تنشر في ربوع الأرض العربية كلها ، على أنها أيضًا قصة تاريخية ، والفصحى بجلالها ووقارها تنسجم مع جلال الماضي ووقاره ، وبالتالي تشارك في جعل الطفل يعتز بتراثه وماضيه ، على حين تعمل العامية بضيق حدودها على فصل الطفل عن أمجاد العرب والمسلمين نفسياً ووجدانياً ، وهذا ما قصده دعاتها ومَنْ وراءهم من المستعمرين .

٧- *الصورة الأدبية* :

وجمال القصة في خيالها أيضًا ، فهو الذي يدع الطفل يتملى المواقف واحدة تلو الأخرى ، مصورة تصويرًا شيقًا على نحو وصفه المودّعين الذين كانوا يئسوا من عودة خريستوف وصحبه :

«وفي اليوم الثالث من أغسطس سنة ١٤٩٢ تهيأت السفن الثلاث للرحلة وكان على الشاطئ آلاف من الخلق يلوحون بالمناديل ، وفي عيونهم دموع ، وفي صدورهم قلق ، إذ كانوا جميعًا في شك من إمكان عودة هؤلاء المسافرين أحياء .

* * *

ورفعت السفن راياتها . ونفخ الربان في صفارته ، وتهادت السفن الثلاث على وجه الماء متجهة إلى غرب» [١] .

فهنا جعلنا الأديب نتصور لحظة الوداع بتأثر وحزن عميقين ، كانت لحظة تسكب فيها الدموع الغزار ، وتجف القلوب من خشية الفراق ، إنها لحظة وداع أخيرة لأناس لا مأمل في عودتهم ، بل في بقائهم أحياء على ظهر الأرض، وها هي ذي السفن تتهادى وقد رفعت راية الرحيل ، وعلا صفيرها مؤذنًا ببدء المعركة ، معركة مع البحر العظيم ، فإما انتصار وفوز ، وإما فناء وهلاك في طيات أمواجه الصاخبة .

٨- الأحاسيس والمشاعر .

وتشارك العاطفة الأسلوب والخيال ، وسواهما من العناصر الفنية في إكساب القصة جمالاً ، وتتنوع هذه بين فردية تبدو في رغبة البحارة في قتل خريستوف لينقذوا أنفسهم من هلاك [٢] .

وإنسانية تظهر في حب العرب نشر رسالة الهدى والخير والعلم والحضارة على ربوع العالم أجع [٣] .

وهناك عواطف الفرح ولا سيما عند رؤية جزر المحيط الأطلسي . أو بتعبير آخر تحقيق الأماني باكتشاف الأرض الجديدة . أو الظن بالوصول إلى الهند عن طريق الغرب [٤] .

* * *

(١) القصة ص (١١٨) ومن المشاهد الجميلة المؤثرة منظر عودة الفتية وقد ألقى بهم زورق الهنود على الشاطئ مقيدين ، معصوبي الأعين ، قد علا صراخهم حتى يجذبوا إليهم القادمين انظر ذلك ص (٨٥) . وقد مرّ في الأسلوب والحوار مشاهد كثيرة .

(٢) انظر القصة (١٢٧) .

(٣) انظر القصة (٣٨) .

(٤) انظر القصة (٤٥ و ١٣٩) .

وعواطف الحزن قد بدت على وجه المترجم وتعابيره لفراق الأهل والوطن [1] ؛ وتنوعت دوافع العواطف تنوع الحادثة ، ونفسية الشخصية ، وكانت سطحية عند البحارة الذين رافقوا خريستوف ، لأنهم كانوا يطمعون بالمال . وعميقة عند الفتية المغرورين ، وملك مالي ، وقد ذهب هؤلاء ابتغاء غاية سامية أرادوها من الفتح الجديد .

وقد علت نبرتها كثيرًا في المحادثة الثالثة عندما ضجر البحارة ، ويئسوا من الوصول إلى أمانيهم ، على حين هدأت عند البحار العربي الأصل إفراني . وكذا عند ملك مالي ، لأن رحيلهما . كما أسلفت . لم يكن كرحيل المرتزقة .

ختامًا أكرر ذكر الخطأ الفني الذي ارتكبه الأديب حينما استهل قصته وختمها كما تستهل الكتب وتنتهي . فصارت بذلك أقرب إلى البحث العلمي التاريخي منها إلى القصة ولا سيما أنه ذكر في خاتمتها «أن كل ما تضمنته هذه القصة من الحوادث الكبار ، ذكره المؤرخون العرب القدماء ، واعترف به كثير من المؤرخين الأوربيين ، وفي كثير من المخطوطات العربية القديمة المحفوظة في بعض المكتبات الأوربية تفصيلات وافية عن بعض المحاولات العربية التي وصفناها ، وقصة الشبان اللشبونيين الثمانية مذكورة في بعض المؤلفات العربية التي مات مؤلفوها قبل أن يولد خريستوف كولمبس ! ولم تزل الصحف العربية والأوروبية تنشر في أوقات متقاربة أو أوقات متباعدة بحوثًا جديدة لمؤرخين أوربيين ، وجغرافيين أوربيين تثبت أن العرب قد عرفوا ذلك الطريق ، ووصلوا إلى تلك الأرض قبل أن يصل إليها خريستوف كولمبس ، وقبل أن يكون فرديناند وإيزابيلا» [2] .

* * *

---

(١) انظر القصة (٦٥ - ٦٦) .

(٢) انظر القصة (١٥٧) .

ومن هنا كانت الدكتورة بنت الشاطئ محقة حينما أرادت منه أن يجمع هذه المصادر التي أشار إليها في بحث علمي يبقى ذخرًا للباحثين [١] ، ولو أن الأديب سجل هذا قبل بداية القصة تحت عنوان «بين يدي القصة» مثلاً لحالفه التوفيق ، ولكانت قصته أقرب إلى الكمال ، ولمنع اللبس الذي يراود القارئ قبل أن يتأكد من حقيقتها ، ولأفاد الباحثين والناشئة فائدة تذكر له أمداً .

***

(١) انظر جريدة الأهرام ١٩٦١/٥/١٢ ع ٢٧١٨٠ ص ١٣ : القصة والتاريخ .

ثالثًا : مغامرات أرنباد

وهي مغامرات بطولية للأرنب أرنباد عرضها العريان حلقات مسلسلة في مجلة سندباد مرتبة على هيئة مربعات ذيلت بعبارات تلائم الصورة الكاريكاتورية في مضمونها ، وتتألف كل مغامرة من خمس عشرة صفحة أو تزيد قليلاً . ولأرنباد عدة مغامرات ، تحدثت على لسانه ولسان غيره من الحيوانات كالحمامة والثعالب عن الأفكار التي يريد أن يبثها في نفوس الصغار ، ومما يؤخذ عليها شكلا أن الأديب لم يشر في كل عدد إلى أنه يتبع ما سبقه ، أو سيتلوه آخر مما يجعل القارئ يظن أن كل صفحة تحوي مغامرة . ولكن احتياج بعضها إلى تتمة يوحي بإتباعها بأخرى ، وقد تلافى هذا التقصير في بعض حلقاتها .

ترمي هذه المغامرات كغيرها من قصص المجلة إلى بث روح الشجاعة والجرأة في نفوس الصغار ، وضرورة محاربة الأعداء ، واتخاذ الوسائل الكافية للقضاء عليهم وعدم الركون إلى ما يبذره هؤلاء من فتن بين صفوف المجتمع الواحد ، مع الحيطة والحذر من مؤامراتهم [1] .

كما تدعو إلى ضرورة العلم ما استطاع الإنسان إلى ذلك سبيلا ، وإلى التحلي بالخلق الحميد كالحياء وترك الحسد . والتنافس [2] .

وقد اتخذ الأديب عدة عناصر تشويق ، منها طريقة العرض بصورة ملونة جذابة ، ومنها المضمون الذي يجري على غرار المغامرة الثانية التي نلقى فيها أرنبا ، يتفق وصحبه على القضاء على الثعالب أعدائهم ، ويحيك كل من الطرفين مؤمرات شتى للإيقاع بالطرف الآخر ، على حين كانت الحمامة تحاول إنقاذ سيد الأرانب «أرنباد» من كل ضيق يقع فيه ، وعندما يتم القضاء على

---

(١) مجلة سندباد السنة ١ ع ٢٥ . ومغامرات أرنباد المطبوعة ص (٣) .
(٢) مغامرات أرنباد ص (١ ، ١٧ - ١٩) .

الثعالب ويفرح مجتمع الأرانب يحاول والدا أرنباد أن يزوجاه ولكنه كان وعد أرنبة تقطن منطقة بعيدة فأبى ، وعزم على الذهاب إليها ، وأمّر على مملكته صهره ، وفي طريق عودته وقع وزوجه في شرك نصبه لهما وحوش الغابة ، لكنهما نجوا منه بمساعدة الحمامة ، وعاد أرنب ليتسلم الملك ثانية على حين لم يطق صهرة البقاء في المملكة بعد أن صار سيدها فترة [1] .

ومن عناصر التشويق أيضًا انتهاء كل عدد من أعداد المغامرة بخطر يحدق بأرنباد وينجو منه في حلقة تالية ليقع في آخر أشد منه تأزمًا [2] .

ومنها أيضًا إيراد القصة على لسان الحيوانات ، وتسميتها بأسماء جذابة كأرنباد و سوسو ، وأبي الشوارب وتوتو ، وسوسوباد [3] ، ثم تفصيل الحوادث تفصيلا يلائم مرحلة الطفولة الأولى [4] .

ومنها أيضا الكلمات البسيطة التي تلائم مستوى الصغار وقد شكلت شكلا تامًا .

***

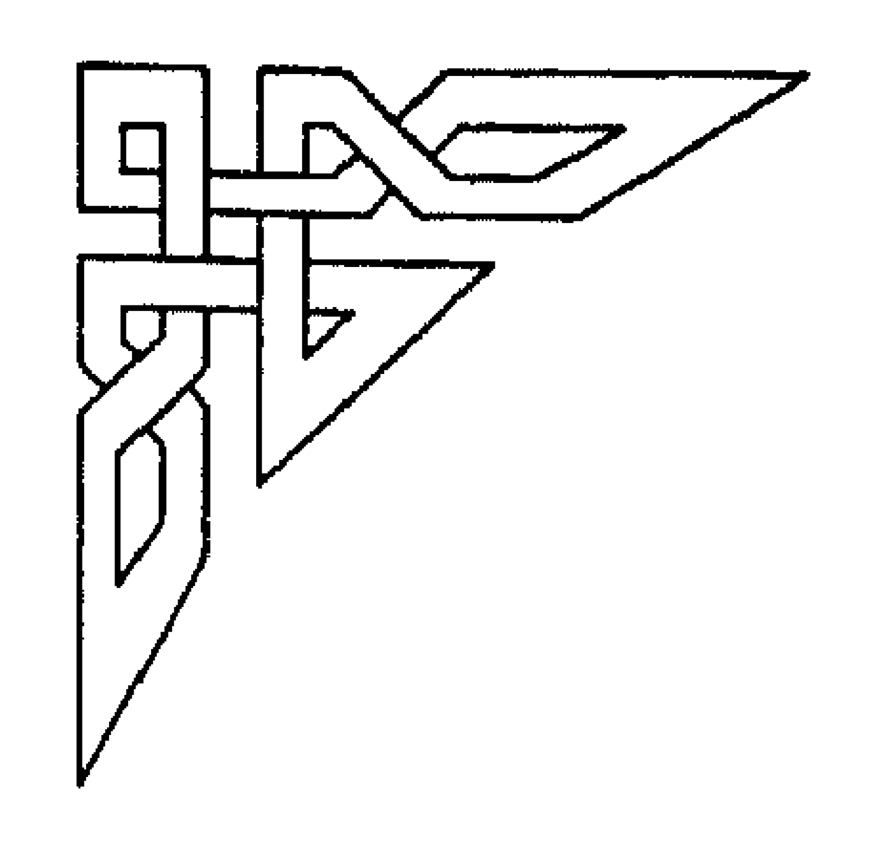
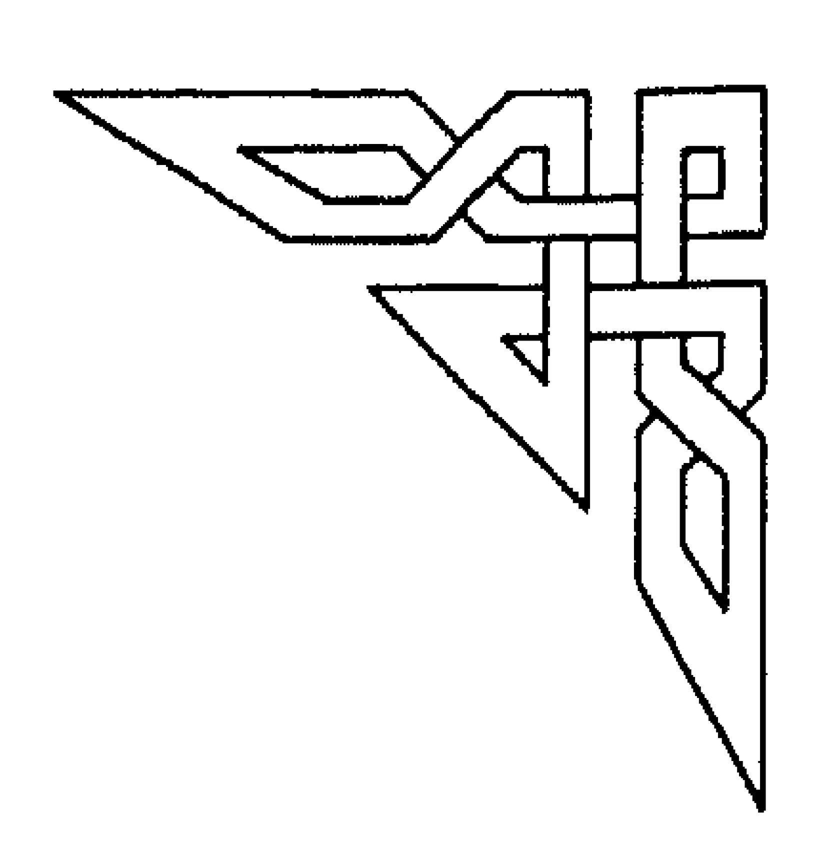
---

(١) مغامرات أرنباد وهي من مجلة سندباد السنة ١ : أعداد المجلدين ١ - ٢ .

(٢) مغامرات أرنباد ص ٧ ، ومجلة سندباد السنة ١ ع ٢٥ ص ١٦ .

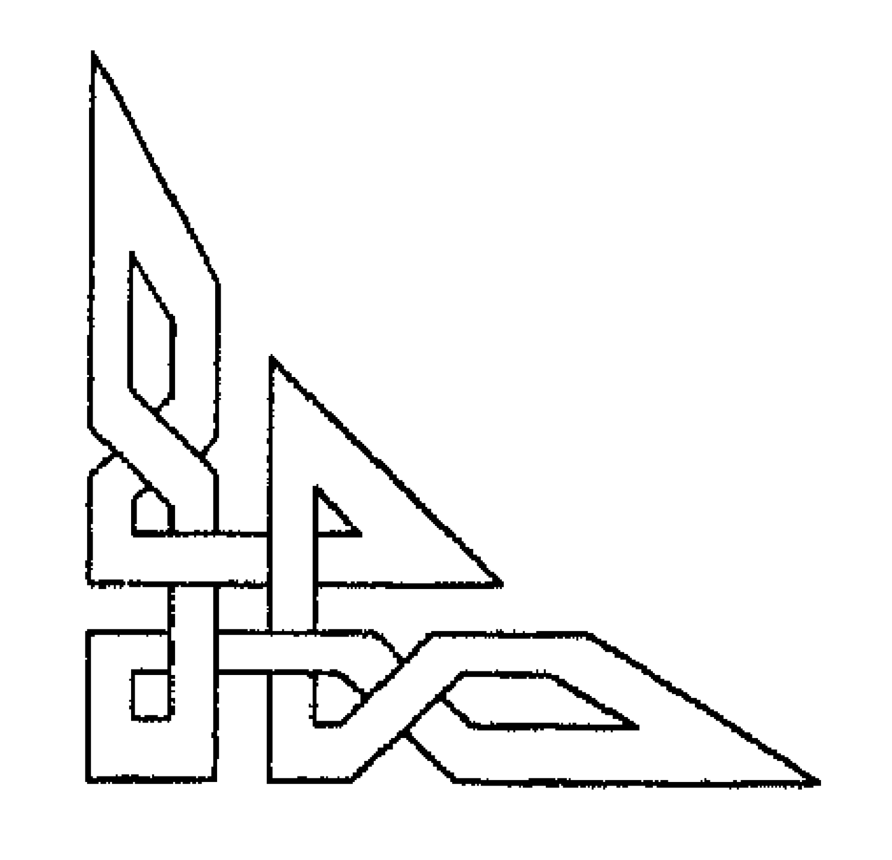
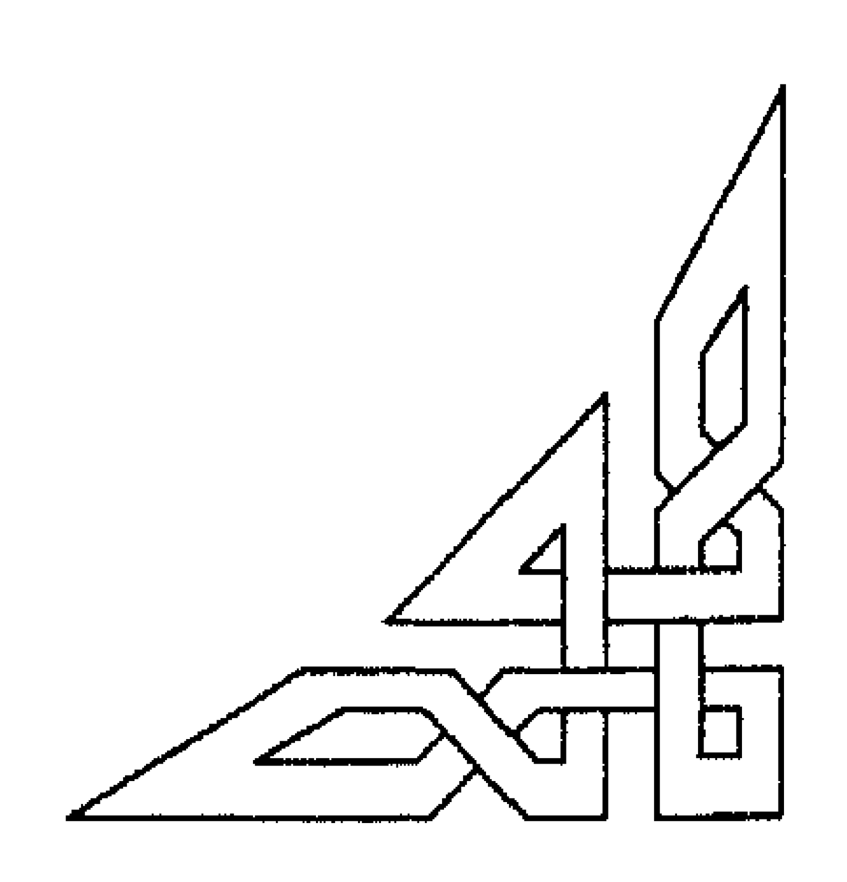
(٣) مغامرات أرنباد ص (٤ - ٢١) .

(٤) مغامرات أرنباد ص (١ - ٢) ومجلة سندباد السنة ١ ع ٢٥ ص ١٦ .

الفصل الثاني

أدبه المشترك

الفصل الثاني
أدبه المشترك

القصص المدرسية - مجلة سندباد - الكتب المدرسية

أولاً : القصص المدرسية [١] :

١- تأليفها

بدأ محمد سعيد العريان ، وأمين دويدار ، ومحمود زهران تأليف هذه القصص في أوائل الثلاثينات حينما كان أديبنا العريان مدرسًا في شربين [٢] ، وذلك إيمانًا منهم بأهمية القصة في تعليم الصغار والناشئة لغتهم بأسلوب قويم ، وفي بث الفضائل الخلقية ، وحب الوطن ، وضرورة تخليصه مما ران على جسده من مفاسد شتى .

ولقد لاقت هذه القصص إعجاب المدرسين العرب ، بل إن أحد المستشرقين أشاد بها ، وعدّها الأولى من نوعها في العربية ، وطلب ترجمتها إلى الإنكليزية اعترافًا بفضلها [٣] ؛ كما قررت وزارة المعارف تدريسها ككتب مطالعة في المدارس ، وحاكاها الطلاب والمدرسون معًا ، ونال الأولون تشجيع

(١) وهي ثلاث وعشرون قصة أولها ، مُدَمِّس أكسفورد - ثم الصياد التائه ، الطيور البيضاء ، عروس الببغاء ، النهر الذهبي ، أصحاب الكهف ، بنت الأمير ، ساقية العفاريت ، سكة الجان ، شجرة الشعر ، مخبر الجريدة ، أميرة الواحة ، تاجر دمشق ، الحظ الجميل ، المصادفة السعيدة ، معمل الذهب . الأخ الشريد . البيت الجديد . سميحة ومديحة ، عروس الشاطئ ، معروف بمعروف ، الراية الحمراء ، الزعيم الصغير .

(٢) انظر مجلة العربي ع ١٢٦ : محمد كامل حته بعنوان محمد سعيد العريان ص (٤٤) .

(٣) انظر مجلة صحيفة دار العلوم س ١٩٣٥ جـ ٢ ص ٢٠٣ : محمود الطنيخي يتحدث عن القصص المدرسية .

المؤلفين ، حتى إن بعض ما ألفوه نشر في قصصهم [١] .

وتُعد هذه القصص «فتحًا جديدًا في أدب الطفل ، يقدم إليه طائفة من المعارف في أسلوب قصصي جذاب ، يحبب إليه المطالعة ، ويربطه بالكتاب» [٢] ، وقد عمد مؤلفوها إلى تأليفها بعد أن رأوا قلة ما تحويه المكتبة العربية من الكتب التي تناسب الصغار .

ويحكي الأستاذ «أمين دويدار» أحد المؤلفين طريقة تأليفها فيبيّن أنه وزميليه كانوا يتفقون على الفكرة التي يريدون إبرازها ، ثم يكتبها أحدهم بأسلوبه ، ويقرأها بعدُ على ملأ من الآخَرَيْن ، وتنقح من ثلاثتهم ، ولم يميّز بين قصة كتبها هو أو رفيقاه ، بل أصر على نسبتها إليهم جميعًا ، وذكر أنهم كانوا يراعون فيها مستوى التلاميذ ، ونَفَس الطفل القصير ، ومن هنا كانت صغيرة في حجمها إذ لم تتجاوز الواحدة منها خمسين صفحة من الحجم الصغير مكتوبة بخط كبير ، كما كانوا يعالجون فيها موضوعات تتعلق بالبيئة المصرية ، وبروح العصر ، وبالحياة الوطنية التي يحياها بلدهم آنذاك .

أما لغتها فكانوا لا يحيدون فيها عن الفصيح الصحيح ، ويدخلون فيها ما يرونه في العامية من كلمات عربية حتى يشعر الطفل أن في عاميته كثيرًا من العربية ، وكانوا إلى ذلك لا يشرحون غريب مفرداتها ، بل يوضحونه بالترادف والتكرار ، ويتركون للسياق أيضًا أن ينير خافيها [٣] .

ويذكر المؤلفون في مقدمة القصة الأولى «مدمس أكسفورد» الحافز الذي دفعهم إلى تأليفها ، وهو ولوع الطفل بالقصّة ، وضرورة تلقي معلوماته عن طريقها بدلاً من أن تقدم إليه بطرق جافة في الكتاب ، وتعليم الإنشاء ، والتعبير الجيد الفصيح إلى غايات أخر بيّنوها ، يقولون فى ذلك :

---

(١) انظر مجلة صحيفة دار العلوم س ١٩٣٦ ع ٤ ص ١١٢ المتولى قاسم يتحدث عن القصص المدرسية .

(٢) انظر مجلة العربي ع ١٢٦ محمد كامل حته ص (٤٤) .

(٣) مقابلة مع أمين دويدار في ١٩٧٤/٧/٧ .

ورمينا إلى الأغراض التالية :

١- أن تكون وسيلة إلى تعليم الإنشاء - فجعلنا أسلوبها سائغًا مفهومًا لا يبعد عن الفصحى - ولا يتدلى إلى لغو العامية ، وحاولنا أن نقرب بين العامية التي يتكلمها التلميذ ، والعربية التي يتعلمها ، فأبقينا على كل كلمة عامية لها في العربية أصل يؤيدها ، غير وانين في التنقيب والبحث عن كل كلمة في مظانها ، ووضعنا تحت عين التلميذ نماذج منه جيدة الإنشاء مبثوثة في تضاعيف القصة ؛ ليسهل عليه تناولها من غير أن يشعر بسأم المتعلم ، فلا يكاد يأتي على القصة حتى يكون قد اجتمع له من فصيح الكلام قدر يعينه على المحادثة والإنشاء .

٢- وأن تكون وسيلة إلى تهذيب الطفل ... بحيث يتهيأ له أن يعرف الطريق إلى الرجولة الفاضلة من غير أن يلتوي عليه السبيل .

٣- وأن تكون وسيلة إلى تسليته ... فجعلناها صغيرة الحجم ... مشكولة ... مصورة ... رخيصة الثمن» [1] .

٢- *موضوعاتها :*

تعددت الموضوعات التي عالجتها هذه القصص بين خلقية ودينية ، وثالثة وطنية ، وأخرى علمية ، وهاكم تفصيل ذلك :

أ- الموضوعات الخلقية :

وترمي إلى التخلق بالخلق الحميد ، وتجنب الرذائل ، وهذان الخلقان نراهما مبثوثان في ثنايا القصص ، وفي الغاية الأخيرة التي توصل إليها من ذلك دعوتها للمرء إلى عمل الخيرات ؛ لأنه بذلك ينال أضعافًا مضاعفة جزاء سعيه [2] . وعدم التبذير مما آتاه الله من مال الدنيا [3] ، والاقتصاد منه لأيام

---

(١) مقدمة القصة الثلاثون بعنوان : كلمتنا إلى الآباء والمدرسين ص (٣ - ٤) .

(٢) انظر قصة معروف بمعروف .

(٣) انظر قصة النهر الذهبي والأخ الشريد .

الشدة [١] ،والمحافظة على الصداقة لأنها شيء ثمين لا يوزن بمال ، بل يجب التضحية من أجلها بالمال والنفس [٢] . ثم إن على المرء ألا يقعد عن العمل ؛ لأن هذا يرفع من قدره وينيله أمنيته [٣] ، ويبعده عن أن يصير عالة على الآخرين [٤] ، وعلى كلٍ من الزوجين أن يفي لصاحبه في أيام محنته ، والله لن يَتِرَ لهما أعمالهما ، بل وينجيهما من المآزق والشدائد [٥] ، والمرأة يجب أن تتمتع بالخلق الحميد ، وأن تكون متواضعة ، تحسن أعمال البيت ، وإلا أدى بها سوء خلقها ،وقلة تدربها إلى الخذلان ، والتعرض للسخرية [٦] .

كما تحث القصص على تجنب شتم الآخرين مهما كانت مراتبهم الاجتماعية [٧] ؛ لأن المقياس في الإكرام والإحسان ليس هو الجاه والمنصب ، وليس هو المظاهر الخلابة التي يتراءى بها الناس [٨] ، كما تعمد إلى الغيرة والحسد فتصورهما بمظهر المفرِّقَيْن للجماعة ، المفسدَيْن حُسْنَ العلاقات [٩] .

ولقد نَبَّهَتْ بعض القصص المدرسية أيضًا إلى خطل ما يشاع من أنباء يتواردها عامة الناس وأهالي القرى في معظم الأحيان عن الجن والعفاريت ، لأن الإيمان بأضرارهما ، والخوف من بطشهما يحولان دون التفكير السديد المنطقي [١٠] .

* * *

(١) انظرالسابق .

(٢) الراية الحمراء والصياد التائه .

(٣) انظر قصة مدمس أكسفورد ، والحظ الجميل .

(٤) انظر قصة مخبر الجريدة .

(٥) انظر بنت الأمير .

(٦) انظر قصة عروس الببغاء ، وشجرة الشعر .

(٧) انظر سميحة ومديحة .

(٨) انظر تاجر دمشق .

(٩) انظر البيت الجديد ، والطيور البيضاء .

(١٠) انظر ساقية العفاريت وسكة الجان .

وأخيرًا دعت إلى ضرورة الاهتمام بساكني البوادي والفيافي ، وضرورة تعليمهم وإرشادهم صحيًا وثقافيًا لينتزعوا من براثن الجهل المطبق الذي يعيشون فيه (١) . وإلى إيواء المشردين ، هؤلاء الذين حرموا من عطف الوالدين ، واحتاجوا إلى من يعوّض لهم الحنان والوئام بحنان ورحمة وإحسان (٢) .

ب- الموضوعات الدينية :

وقد لفت المؤلفون القراء إلى موضوع القضاء والقدر وتحكمهما بحياة الناس ، وبينوا أن هذا الإيمان لا يعني أبدًا التواكل وإهمال السعي والنضال بل يتطلب من المرء جهدًا وحركة ما دام على ظهر هذه المعمورة يلجأ بعدهما إلى الله ، ويترك التوفيق إليه ؛ لأن بيده مفاتيح كل شيء ، وعلى المرء أن يرضى بما قسم الله له من عمل أو خير (٣) ؛ لأنه تعالى لا يضيع أجر المحسنين ، وهو ينقذ الصالحين مما يصيبهم من مآزق ومخاطر (٤) ، بعد أن يتركهم ليختبر إيمانهم وصبرهم ، كما يعاقب المذنبين بما يستحقونه من عقاب (٥) ، كما حثوا على ضرورة الإيمان باليوم الآخر ، وبقدرة الله تعالى على بعث المخلوقات ثانية (٦)، هناك - إلى ذلك - دعوة إلى القيام بالشعائر الدينية كالصوم ، والصلاة ، والصدقة مما نلمحه في ثنايا القصص (٧) .

* * *

---

(١) انظر أميرة الواحة .
(٢) انظر الأخ الشريد .
(٣) انظر الحظ الجميل والبيت الجديد وعروس الشاطئ .
(٤) انظر مخبر الجريدة .
(٥) انظر معمل الذهب .
(٦) انظر أهل الكهف .
(٧) انظر أميرة الواحة .

ج- الموضوعات العلمية :

ويأتي في مستهلها تعريف الصغار والناشئة على البيئة المصرية بما فيها من مجاهل صحراوية (١) ، وآثار قديمة ، ولا سيما الفرعونية منها ، وتنبيههم إلى ضرورة إعلام المسئولين عن وجود أمثالها (٢) ، كما تلقي بعض الضوء على حياة البَدْو وما يعانون من مرّ العيش ، وظلمة الجهل (٣) .

كما تعرفهم على البيئة الاستوائية بما فيها من أناس آكلي لحوم البشر ، وحيوانات وعوامل مناخية تختلف عما هي في مصر (٤) .

د- الموضوعات الوطنية :

وأهمها جهاد المستعمر ولو كلف ذلك بذل المال والأرواح (٥) ، وضرورة الحفاظ على سمعة مصر أمام الأجانب ، كما أن على المصري أن يعتز بعاداته الاجتماعية ، وقيمه التي تشربها في وطنه ، وألا يتخلى عنها إذا ما خرج منه ليثبت للأجانب أن مصر فوق الجميع (٦) .

ومما يلحق بقصص الأطفال مجموعة «روضة الأطفال» وقد صدر منها قصتان هما «بير وزويلة ، ومحسن ومحاسن» وهما مقدمتان للسنة الأولى والثانية من المرحلة الابتدائية تتحدث الثانية عن طفلة تدعى محاسن وصغير يسمى محسنًا تآلفا منذ نعومة أظافرهما ثم تزوجا في كبرهما ، وقد أدخل إليها المؤلفون

---

(١) انظر الصياد التائه .

(٢) انظر سكة الجان .

(٣) انظر أميرة الواحة .

(٤) انظر سميحة ومديحة .

(٥) انظر قصة الراية الحمراء ، وتتناول هذه فصلاً من تاريخ الثورة المصرية في عام ١٩١٩ ، وقد صودرت القصة - وأُحرقت في فناء مدرسة المنيرة الابتدائية بالقاهرة بحضور مندوب من دار المندوب السامي البريطاني لما تبثه من ضرورة جهاد المستعمرين الإنكليز ، وتحمل العذاب في سبيل الحرية .
انظر مجلة العربي ع ١٢٦ ص ٤٤ : محمد كامل حتة بعنوان محمد سعيد العريان .

(٦) انظر قصة مدمّس أكسفورد .

الثلاثة «العريان ، ودويدار ، وزهران» أناشيد عذبة تلائم الطفل الصغير ، كما سجلت بحروف كبيرة واضحة ، وزيّنتْ بصور ملونةٍ جذابة تقابلها عبارات ملائمة في الصفحة المجاورة إلا أن موضوعها لا يلائم الطفل في مثل هذا العمر .

ثانيًا : مجلة سندباد :

بدأ صدورها في الثالث من يناير «كانون الثاني» من عام ١٩٥٢ (١) ، واستمرت سبع سنين تواصل نشاطها حتى أخرجت ثلاثة وعشرين مجلدًا على شكل أعداد مسلسلة تصدر يوم الخميس من كل أسبوع ، وكان مخرجوها يرمون إلى بث روح التآلف والمودة بين أبناء الأمة العربية إلى غايات أخر ستتضح بإذن الله ، وكان محمد سعيد العريان رئيس تحريرها ، وكاتب كثير من قصصها وفصولها ، وقد عرفنا أن «رحلات سندباد والعرب لاخريستوف كولمبس» نشرت أعدادًا مسلسلة في هذه المجلة مع تلخيص يوجز ما سبق ، ومن هنا لا أستطيع أن أثبت له إلا ما نشره في كتاب مذيل باسمه (٢) ، أو ما نسب بوضوح إليه أو مشتركًا مع غيره في تأليفه (٣) .

* * *

---

(١) انظر مجلة سندباد السنة الأولى ١٩٥٢ ع ١ .

(٢) وقد ثبت له مغامرات أرنباد التي طبعتها دار المعارف بمصر وسجلت اسمه مؤلفًا لها .

(٣) وهو مجموعات كان يا ما كان القصصية ، ولقد نسب ابنه إليه ما لم أتأكد منه ، ولذا أهملته ولا سيا أنه لا يتجاوز توقيعات هي كنصائح في بضعة أسطر قدمها كاتبها في الصفحة الأولى من المجلة مزيلة بتوقيع سندباد ، أو مشيرة العجوز المسنة ، وهما لا يساويان شيئًا مذكورًا إذا ما قيسا بمضمون المجلة .

أما ما رجّح ابنه من أدبه في هذه المجلة ، وهو مغامرات بوسي ، وقصة العدد المترجمة ، ومغامرات بسبس وفرفر ، فسأدعه أيضًا لأنه لم يثْبِت ولم يَثْبُت لي شيء منه ، ولو كانت له ، أو حتى لو كانوا اشتركوا في تأليفها لطبعها كما طبع غيرها من الرحلات والمغامرات والمجموعات القصصية ، أو لأثبت اسمه عليها كما فعل في قصص كان يا ما كان . ولا سيا أن هذه مترجمات أجنبية أعاد كاتبها صياغتها بأسلوبه في معظم الأحيان ، ولم يستطع ابنه هذا أن يميّز ما له مما هو لغيره : مقابلة مع ابنه في ١٩٧٤/٧/٢٦ .

نالت هذه المجلة شهرة واسعة في أقطار الوطن العربي ، وأشاد بها رجال التربية . وقررت وزارة المعارف المصرية وضعها في مكتبات المدارس الابتدائية والإعدادية ، كما قررت أن تكون موضوعاتها مادة يختبر التلاميذ بها (١) .

ويتألف معظم أعداد المجلة من ست عشرة صفحة من الحجم الكبير ، تحتوي صفحتها الثانية على توقيع سندباد ، ونصيحة مشيرة ، وأسرة سندباد التي كوّنت المجلة ، ورحل فيها رحلته السالفة الذكر ، والتي هي أهم موضوع في المجلة (٢) ، تليها صفحة «أمتنا العربية» وتتحدث عن أمجادنا ، ثم قصة العدد المنقولة عن لغات أخرى ، ثم مغامرات صفوان المسلسلة منشورة على هيئة صور مربعة الشكل سجل تحتها عبارات ملائمة ، ثم قصص «كان يا ما كان» ثم أخبار و «قصص من شعوب العالم» كالهند والصين وإيطاليا ، وبها يُلخص قصة من قصصهم التي تحكي نماذج من حياتهم ، وطرائف من بيئتهم ، ثم رحلات سندباد ، فقصة اكتشاف أمريكا التي طبعت تحت عنوان العرب لاخريسوف كولمبس ثم معرض سندباد الذي يوضح طريقة صنع ألعاب من الورق المقوى ، فتعال نلعب ، وهي ألعاب مفيدة للعقل والثقافة والأعمال اليدوية ، وبعضها ذا طرق علمية ، فمغامرات أرنباد المسلسلة التي طبعها أيضًا ، أو مغامرات بوسي التي نشرت بعد انتهاء الأولى .

كما يوجد في المجلة حزورات للتسلية ونكات بريئة ترمي إلى هدف أخلاقي في معظم الأحيان تلائم مستوى الأطفال .

وتختلف بعض الأعداد عما ذكرته قليلاً إذ يحوي بعضها أبحاثًا علمية كالحديث عن دورة الماء في الكون من لَدُن تبخره حتى سقوطه مطرًا ينبت الله

---

(١) انظر الرائد س ٩٥٦ ع ٣ ص (١٠٨) .

(٢) يذكر الكاتب على لسان سندباد بعض محتويات المجلة بشكل عام كالقصص والمغامرات والرحلات والصور والألعاب . أما نصيحة مشيرة فهي نصائح عجوز خبرت الحياة ترد بها على السائلين من أولاد العالم ، وتضم أسرة سندباد : العمة مشيرة وسندباد ، وأخته قمر زاد ، وصديقه صفوان ، وهؤلاء هم أفراد أسرة سندباد في رحلاته .

به الزرع ويسقي الخَلْق ، وهذه القصص تلائم خبرات الأطفال ، واهتماماتهم ، ومداركهم ، أو يضاف بريد القراء الذي يقترح فيه القارئون مقترحات يطلبون تنفيذها على صفحات المجلة ، أو يشيدون ببعض الموضوعات التي تنشر فيها ، أو يحوي بعضها نصائح خلقية أو طبية تبثّ في ثنايا المجلة .

ولما توقفت قصص «كان يا ما كان» حلّ محلها «مغامرات زوزو» ونشرت على غرار مغامرات صفوان صورًا مذيلة بما ينسجم وموضعها .

وقد تحذف قصص «من شعوب العالم» ويعرض عوضًا عنها قصص «صلادينو حول العالم» التي تتحدث كسابقتها عن عادات بعض المجتمعات وأديانهم .

وتحوي بعض الأعداء أيضًا ندوة سندباد ، وهي ندوة مؤلفة من أعضاء يتحدث أحدهم عن كتاب قرأه خلال الأسبوع الماضي ، ولا شك أن له دورًا في تأليفها أو تأليف بعضها وللندوة فرقة رياضية ومحكمة للفصل بين المتنازعين .

وكان بعض القراء يرسلون قصصًا إلى المجلة فتنشر لهم تشجيعًا ، وهناك أيضًا مسابقات وجوائز للفائزين بيانصيب سندباد ، وكلمات متقاطعة ذات أهداف علمية وثقافية .

والتوجيه الخلقي بارز في المجلة كالتصدق على الفقراء ، وضرورة معاملة الناس بالحسنى ، وكذا التوجيه نحو حب الوطن ، وضرورة الدفاع عنه ، ومؤازرة الشعب العربي في أي مكان ولا سيما في فلسطين [1] .

ومن أهدافها أيضًا تعريف القراء العرب على عادات الأمم الأخرى وأديانها ، إضافة إلى ما فيها من قصص دينية وتربوية .

أما قصص المغامرات فإنها تبغي في الدرجة الأولى بث الخلق الحميد في

---

(١) انظر مجلة سندباد : السنة ٢ ع ٦ ص ٢ بعنوان زعماء المستقبل ، ويقصد بهم أعضاء ندوة سندباد ، وما سيقومون به من دور في تحرير الوطن العربي ، وكذا قصص عن فلسطين في السنة ١ ع٢ ص١٠ .

نفـوس الناشئـة ، وكذلـك التقـوى ، وطاعـة الله عـز وجـل ، وانـتزاع بعض العادات السيئة التي تفشت في المجتمع ، كالسحر ، وكانت تنشر مسلسلة مع مُوجز للعدد السابق ، كما رمت المجلة إلى بث الاهتمام بالأعمال اليدوية ، أو تنمية ملكة التفكير ، وذلك عن طريق الألعاب .

ومما يلاحظ على المجلة غزارة المادة العلمية والأدبية في سنواتها الأولى ، مع عرض صور تلائم في كمها وكيفها متطلبات الوسيط والمادة والطفل ، إلا أنها بدأت تدريجيًا تكثر من الصور على حساب القصص المفيدة والعلم والأدب وإن ظل للأخير دوره إلى حد كبير .

وقـد بدأ هذا مع أعـداد السنـة الثالثـة حتى إذا مـا وصلنا إلى السنـة الخامسة بل السابعة غدت الصور أكثر محتوياتها ، ولا سيما الكاريكاتورية منها .

ثالثًا : مجموعات « كان يا ما كان » القصصية :

وقد نشرت قصصها على صفحات المجلة أعدادًا مسلسلة محلاّة بصور ملونة واضحة ومعبرة ، ثم جمع بعضها في كتب تحمل اسم قصة من قصصها (١) ، ويكـثر فيها الحديث عن الجن والسحر والخرافة ، وعـن الجـزر الواقعة فيما وراء المحيطات التي يكـثر فيها الأعاجيب (٢) ، وهـذا مما يلائم الأطفال في المرحلة الابتدائية الأولى حيث يميلون إلى الخرافة وأحاديث الجن ، وكأن المؤلفين أرادوا بهـذا أن يجعلوا موضوعـاتهم تنسجـم مع مستويات الأطفـال كافـة عـن طـريق القراءة ، أو سماع الحكايات من لدن شخص آخر .

وفي القصص أيضًـا تعريـف بأساطير الإغريق والإنكلـيز والأتـراك (٣) ،

---

(١) هذه الكتب أو المجموعة القصصية هي : مدينة العجائب ، الصياد الساحر ، الصندوق الصغير ، جزيرة اللؤلؤ ، سلم الساحرة .

(٢) مجلة سندباد السنة ١ ع ١٦ - ٢٢ : القرية الملعونة ، وع ٣٠ - ٣٦ : سلم الساحرة وع ٣٧ - ٤٧ : مدينة العجائب .

(٣) انظر بالتسلسل قصة : التفاحات الثلاثة الإغريقية الأصل ، ومدينة العجائب الإنكليزية الأصل ، والمغامر الصغير التركية الأصل في مجلة سندباد .

وبحياة أمم أخرى كالإسكيمو الذين يقطنون المناطق الجليدية [١] ، وبحياة المهاجرين اللبنانيين إلى أمريكا [٢] ، كما أن بها معلومات فلكية عن النجوم والكواكب ومداراتها ، وعن الظواهر الجوية من مطر وبرق ورعد [٣] .

وترمي هذه القصص إلى غايات خلقية ودينية واجتماعية ، وأخرى ثقافية من ذلك دعوتها إلى الكرم مهما كان قليل المال ؛ لأن الله تعالى يبارك للكريم رزقه ، وتحذيرها من شتم الآخرين ، والسخرية بهم ، وتعذيبهم باللسان واليد ، وحثها على العطف على الفقراء وأبناء السبيل ، وكذا تَحُض على ألا يكون شغل الإنسان الشاغل جمع المال وتحصيله ؛ بل الاكتفاء منه بما يحتاج إليه ؛ لأن السعادة ليست به ، والعاقل من استراح من همومه ، ولكن هذا لا يعني القعود عن تحصيل الرزق ؛ لأن الفقر يودي بحياة الأسر ، ويفرّق شملها ويؤثر على صحة المرء وعواطفه فيتصرف تصرفات غير سديدة ما كان له أن يفعلها لولا ما اعتراه من جوع ممض أثّر عليه .

كما تحض المرء على أن يحكم عقله قبل أن يقوم بأي عمل كان ، وبذلك ينجو من المخاطر التي تعترضه ، والحيلة تغلب الشجاعة ، وعليه أن يسعى لنجدة الآخرين ، ولا سيما أصدقاؤه مما يعتورهم من مصائب ليفرّج كربهم ، والله لا يضيع أجره ، بل ينجيه من الضيق إبان محنته .

والحسد والغيرة داءان يجب الخلاص منهما لأنهما يوديان بحياة الفرد والمجتمع ، وطيّب القلب لابدّ ناج من العذاب ، والحكيم العاقل من تغلب على الشر وعفّى آثاره .

كما تدعو القصص إلى ضرورة العطف على الحيوانات ، وتنبه أبناء المجتمع إلى ضرورة تحكيم عقولهم ، وعدم الإيمان بالخرافات والشائعات

---

(١) انظر مجلة سندباد السنة ٢ ع ١٩ - ٣٦ : مجموعة كان يا ما كان : المغامر الصغير .

(٢) انظر مجلة سندباد السنة ٢ ع ١١ - ١٨ من المجموعة : منظار الأسرار .

(٣) انظر مجلة سندباد السنة ١ ع (٤٨ - ٥٢) من المجموعة التفاحات الثلاث .

الكاذبة ، وبالأحاديث المنتشرة عن أخطار الجن والعفاريت والمردة .

رابعًا : الكتب المدرسية :

وهي كتب ألفها وزملاؤه لتلاميذ المرحلة الابتدائية في المدارس الابتدائية ، وتتنوع بين كتب لمادة التربية الدينية وأخرى للمطالعة العربية . وقد ذكرتها لما تحويه من قصص جذابة ، تدخل في أدب الأطفال .

أ- كتب التربية الدينية [١] :

ألفها العريان وزميله للصفوف الأربعة الأخيرة في المرحلة الابتدائية ، وقد بدأها في عام ١٩٦٠ ، وكان يأمل أن تؤثر على التلاميذ والكبار ، وذلك حينما يعلمها هؤلاء لصغارهم ، وقد اعترف بهذا بعض من كانت له اتجاهات فكرية مخالفة للدين ، إذ ذكر أنه اتجه إلى الإسلام ونبذ معتقداته الفاسدة ، بل وحسن إيمانه بها [٢] . ومما يذكر أن هذه الكتب لا زالت تدرس إلى يومنا هذا في مصر وسوريا وليبيا [٣] .

يضم كتاب الصف الثالث قصصًا شيقة بعضها على لسان الحيوانات ، وتعرف هذه القصص بالله خالق الكون ، كما توجه إلى العمل والنظافة ، وتتحدث عن حياة الأنبياء ، وقد زينت بصور وأناشيد دينية ، كما وجد فيها مسرحية «الدين المساواة» .

أما كتاب الصف الرابع ففيه أيضًا قصص عن الأنبياء ، وأخرى خلقية ، ومسرحية «حكومة الإسلام» التي تتحدث عن عدالة عمر بن الخطاب ، تلك العدالة التي اتضحت في موقفه من عمرو بن العاص الذي ضرب القبطي ، وفيه إلى ذلك - تنبيه إلى ضرورة اتخاذ هذا الكتاب كتاب

---

(١) ألفها محمد سعيد العريان وحسن علوان .

(٢) انظر جريدة الأهرام ١٢/٥/٩٦١ ع ٢٧١٨٠ ص ١٣ : القصة والتاريخ للعريان .

(٣) راجع دار المعارف بمصر إذ قدمت لورثته مبلغًا من المال ثمنًا لطبع هذه الكتب لليبيا ، وقد رأيت وثيقة المبلغ في مقابلة مع ابنه .

دين ومطالعة معًا ، كما كان يتمنى العريان [١] .

أما الجزء الثالث الذي ألف لتلاميذ الصف الخامس فيضم موضوعات عن أركان الإسلام وأبحاث سيرة جاءت على شكل قصص ، وهناك مسرحية وقصص توجيهية ، وأناشيد دينية .

ويتوجه المؤلفان إلى التلاميذ أن يجعلوا هذا الكتاب وسيلة يرتقون بها بأخلاقهم لتكون إسلامية ، وبسلوكهم ليسير على النهج الذي ارتضاه الله لعباده، وفيه أيضا دعوة إلى اتخاذ الكتاب دين ومطالعة لتكون المواد كلها متكاملة فلا تمييز بين الدين والعربية ، أو بينهما وبين غيرهما من المواد .

أما الجزء الرابع المؤلف لتلاميذ الصف السادس فإنه يتحدث عن الأخلاق الإسلامية ويبين ضرورة العمل بأسلوب جذاب ، كما يحوي أناشيد دينية ، وهناك إلى ذلك أبحاث عن السيرة قصصية مشوقة .

ويتوجه المؤلفان إلى الطلاب بالنصح ليلتزموا دينهم الكامل ، الشامل في عبادته وأعماله حتى يكونوا مسلمين كاملي الإسلام .

ومما يلاحظ كثرة القصص في هذه الكتب لما فيها من تأثير على النفوس. تمامًا كما كان يدعو في إصلاحاته التربوية [٢] .

ب - *كتب المطالعة «القراءة»* .

وقد ألفها أصحابها للصفوف الابتدائية الأربعة الأولى ، إلا أن كتاب القراءة الجديدة للصف الأول أحدث ضجة تربوية في الأوساط التعليمية لاعتماده على الطريقة الجملية في التعليم ، ولم تكن مما ألفها المعلمون ، ولا تدربوا عليها فعارضوها محتجين بعدم فائدتها .

---

(١) لمزيد من الاطلاع ينظر كتاب محمد سعيد العريان ، حياته ، فن المقالة والسيرة عنده للمؤلفة ، فصل آراؤه .

(٢) لمزيد من الاطلاع ينظر كتاب محمد سعيد العريان ، حياته ، فن المقالة والسيرة عنده للمؤلفة ، فصل آراؤه .

وقد بيّن العريان وزملاؤه [١] في «كتاب المعلم لتعليم القراءة والكتابة من كتاب القراءة الجديدة للمدارس الابتدائية» النهج الصحيح في التدريس ، وفصاحة اللغة الواردة في ثناياه ، وإن زعم الزاعمون أنها تنتسب إلى العامية على نحو «بص ، شاف» ، وذكروا أنهم قصدوا إلى استعمال هذه الكلمات الشبيهة بالعامية لتكون لغة الكتاب إجمالا هي لغة الطفل نفسه ، لتناسب مداركه ونموه العقلي ، ولئلا يكون هناك مشقة علية في تلقينه ألفاظًا جديدة لا عهد له بها ، ولا يدرك مدلولها إدراكًا صحيحًا إلى جانب تعلمه قراءتها وكتابتها [٢] ، إضافة إلى أن هذه الكلمات تشعر الطفل أن ما يتكلمه عربي ، فيستشعر الثقة بنفسه ، ويعرف أن لغته هي العربية ، وأسلوبها أسلوبه ، وفي هذا أيضًا رد الاعتبار إلى طائفة من الألفاظ ظُنّ خطأ عاميتها .

ومما امتاز به هذا الكتاب استخدامه من العامية الفصيحة ما هو مشترك بين الأقطار العربية ليكون صالحًا لجميع أجزاء الوطن العربي [٣] .

أما كتاب القراءة الجديدة للصف الأول فهو يتألف من جزأين يضم أولاهما قسمين ، وقوام كل قسم قصة هي في الأول حكاية «الأرنب شرشر» مع رفاقه ، وفي الثاني «قصة سعاد» .

ويضم ثانيهما قسمين يتحدث الأول منهما عن «العصفور وسعاد» ويمتاز بطول جمله بالنسبة إلى الجزء الأول ، كما أن به تمارين لغوية تدرب الطفل على تركيب الجمل العربية تركيبًا سليمًا .

ويتحدث الثاني عن «الثعلب في الحظيرة» وفيه إملاء فراغات وأناشيد وتدريبات ، ومن مميزات هذا الكتاب عناية المؤلفين فيه بالقصة لتعليم الطفل

---

(١) ألفه الدكتور عبد العزيز القوصي ، والدكتور محمد قدري لطفي ، والأساتذة محمد عبد الحميد أبو العزم ، محمد سعيد العريان ، عائشة الغمري ، محمد محمود رضوان وذلك في عام ١٩٦٠ م - ١٣٨٠ هـ.

(٢) انظر في كتاب المعلم ص (٣٠ - ٣٦) ، ما ذكره هؤلاء عن منهجهم وطرق تدريسهم ، وإيثارهم العامية الفصيحة .

(٣) انظر كتاب المعلم ص (٣٥) .

لغته وأساليبها ، وقد تعمد المؤلفون أن يقفوا على نهايات بعض الكلمات بالسكون دون أن يعدوا ذلك خطأ نحويًا ؛ لأن في ذلك محاكاة لبعض لهجات العرب (١) ، وكذا إثبات ياء المؤنثة المخاطبة للفعل الماضي تشبيها له بالمضارع نحو رأيتيه بدلا من رأيته (٢) .

وكلمات الكتاب ذات حروف كبيرة ، ومشكلة ، وفيها ألوان تبرز الجديد من الكلمات والحروف ، وبه أيضًا صور توضيحية ملونة بألوان زاهية .

أما كتاب الصف الثاني فإن حروف ألفاظه كبيرة جدًا ، ومزود بصور ملونة وواضحة ، ويتحدث في مجمله عن الأسرة وعلاقات أفرادها ليعلم الطفل تعابير العربية في جمل تحوي كثيرًا من الضمائر .

ويهدف هذا الكتاب إلى غاية تعليمية وتربوية كحب المطالعة ، وخلقية كالمحافظة على أموال الآخرين ، ودينية ، وهناك قصص عن الحيوانات ، وأناشيد تلائم مستوى الصغار .

أما كتاب الصف الثالث فقصصه متنوعة لا ترتبط بموضوع واحد . وتبحث عن المخلوقات المتعددة (٣) . لكن الحديث عن الحيوانات يتخطى نصف الكتاب ، وهناك أناشيد عنها وعن النباتات ، وقصة عن رحلة أسرة إلى طنطا تعرف براعم اليوم ، رجال الغد كلمات العربية التي تتعلق بالسفر وآثار المدن ومناطق طنطا الهامة ، وعادات أهلها الاجتماعية ، ولا سيما في حفلاتهم الدينية (٤) .

ويبغي المؤلفون من تأليفه - إلى جانب غايته التعليمية للعربية - بث الدين والفضائل في نفوس الصغار .

---

(١) انظر السابق .
(٢) انظر ص (٦ - ١٥) .
(٣) انظر ص (١٠٧) .
(٤) انظر ص (٦) .

أما حروف كلماته فقد شكل بعضها و وهي تميل إلى الحجم الوسط .

وكتاب الصف الرابع يمتاز عما سبقه بكثرة أناشيده وطولها [١] وهناك موضوعات علمية تتحدث عن القمر والكواكب [٢] ، وعن بعض عادات البلدان الأخرى كالصين مثلا .

وأخيرًا نرى أن الأديب عمد في الكتب التي ألفها وزملاؤه إلى تعليم العربية وأساليبها الفصيحة بأسلوب قصصي مشوق يسهل على الطفل معرفتها . وقد نوع موضوعاتها لتتنوع المادة اللغوية التي يحصلها الطفل في المدرسة الابتدائية .

***

---

(١) انظر ص (٧) .

(٢) انظر ص (٨) .

الخاتمة

مما سبق يتبين أن محمد سعيد العريان كان من الرواد الأوائل في أدب الأطفال ، وكان يقول «الطفل أبو الرجل» ولهذا فقد وجه إليه عنايته الكبرى، وأعطاه كثيرًا من وقته وجهده وراحته ، فألف له مذ كان في الثلاثينات قصصًا مدرسية . ثم أتبعها في الخمسينات بمجلة سندباد التي أودعها أشهر أعماله الطفولية .

وقد قسمت الكتاب إلى مقدمة ومدخل إلى أدب الأطفال عنده وفصلين وخاتمة .

تحدثت فى المدخل عن اهتمامه بالطفل ومراعاته في قصصه نموه ومداركه ، ثم انتقلت إلى الفصل الأول لأحكي أدبه الذي انفرد بتأليفه وهو : رحلات سندباد وهى أربع رحلات حوت مغامرات طريفة ، وحوادث شيقة ، وخبرات وثقافات متعددة ، بعضها حقيقي ، وآخر خيالي أو وهمي ، وقد ملأت القارئ حبًا لوطنه وأهله ، بل للإنسانية جمعاء .

ثم قصة العرب لاخريستوف كولمبس التي قدمها للصغار في الوقت الذي بدأ فيه العرب يتحررون من المستعمر الغربي ، وذلك ليجعل الطفل - سيد المستقبل - يعتز بعروبته وبوطنه وبأمته التي كانت ذات يوم مرفوعة الرأس ، يحنو لها أكابر القياصرة والأكاسرة ، علّه يومًا يسعى إلى إعادة الأمجاد ، وبناء الحضارة .

ثم كانت «مغامرات أرنباد» التي روت ظمأ الطفل نحو عالم تكثر فيه المغامرات والبطولات .

وفي الفصل الثاني تحدثت عن أدبه المشترك وأوله القصص المدرسية ، وهي ثلاث وعشرون قصة هدفت إلى غايات دينية وخلقية وعلمية وثقافية ،

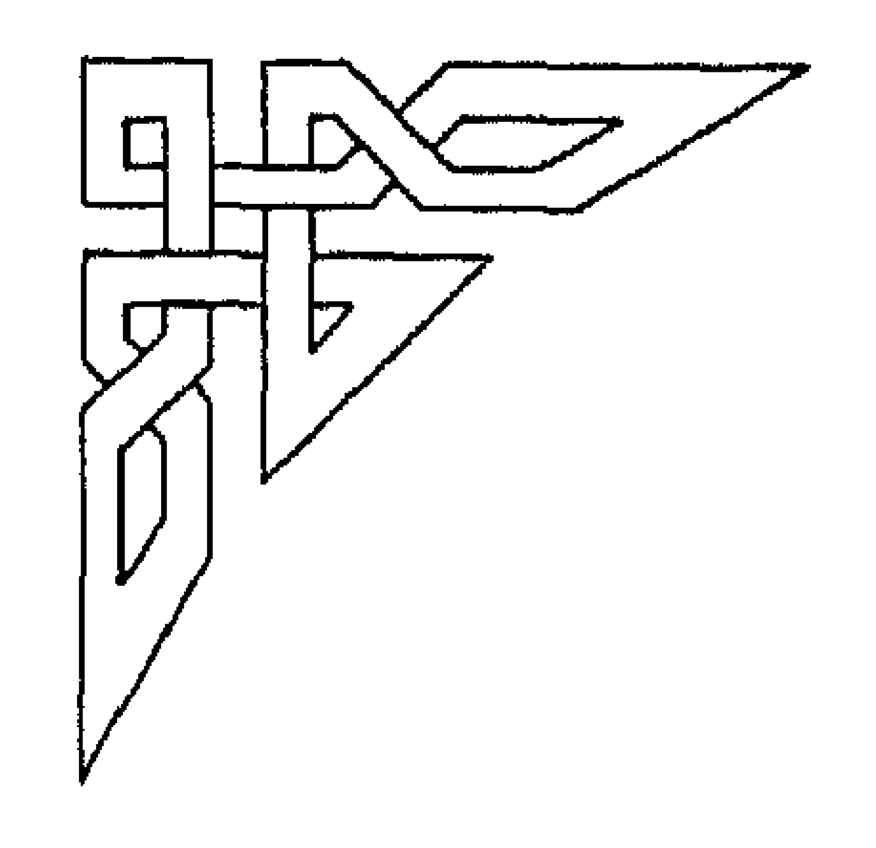
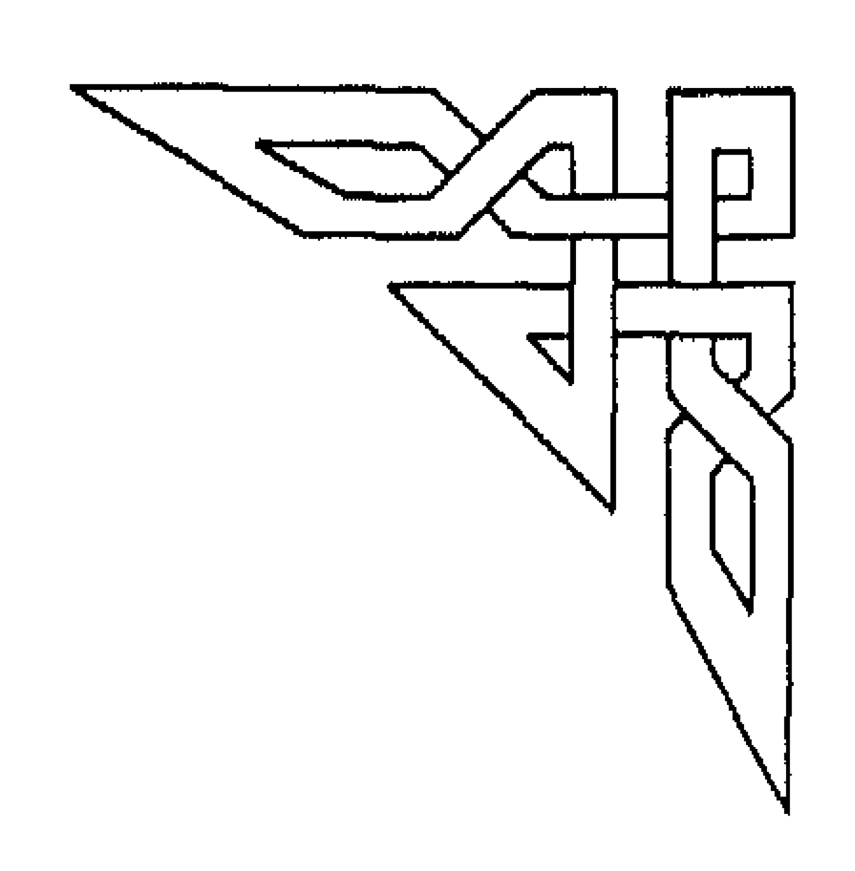
وعلمت الطفل لغته ، وحببته المطالعة - كغيرها من قصصه - بأسلوب ممتع جذاب .

ثم تكلمت عن مجلة سندباد ، وجهوده فيها ، وما حوته هذه من موضوعات ونكات طريفة ، تكون نبراسًا يهتدي بها السارون في طريق أدب الأطفال وقصصهم .

ثم كانت مجموعة «كان يا ما كان» وهي قصص حكاها ليشبع نهم الطفل إلى أجواء خيالية مسحورة ، وقصد من ورائها غايات أخر ، ثم كانت الكتب الدينية والعربية ، وهي كتب أدبية للأطفال بما تحويه من أناشيد وقصص تعلم الطفل دينه تسمو بخلقه ، وتقوّم لسانه .

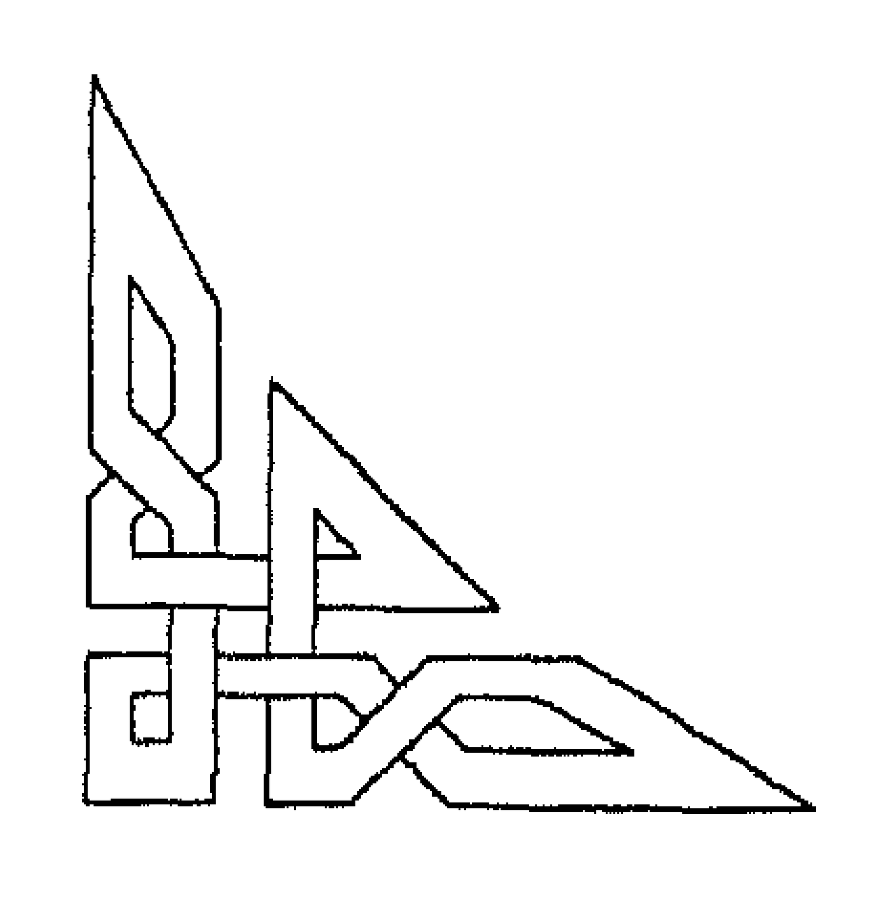
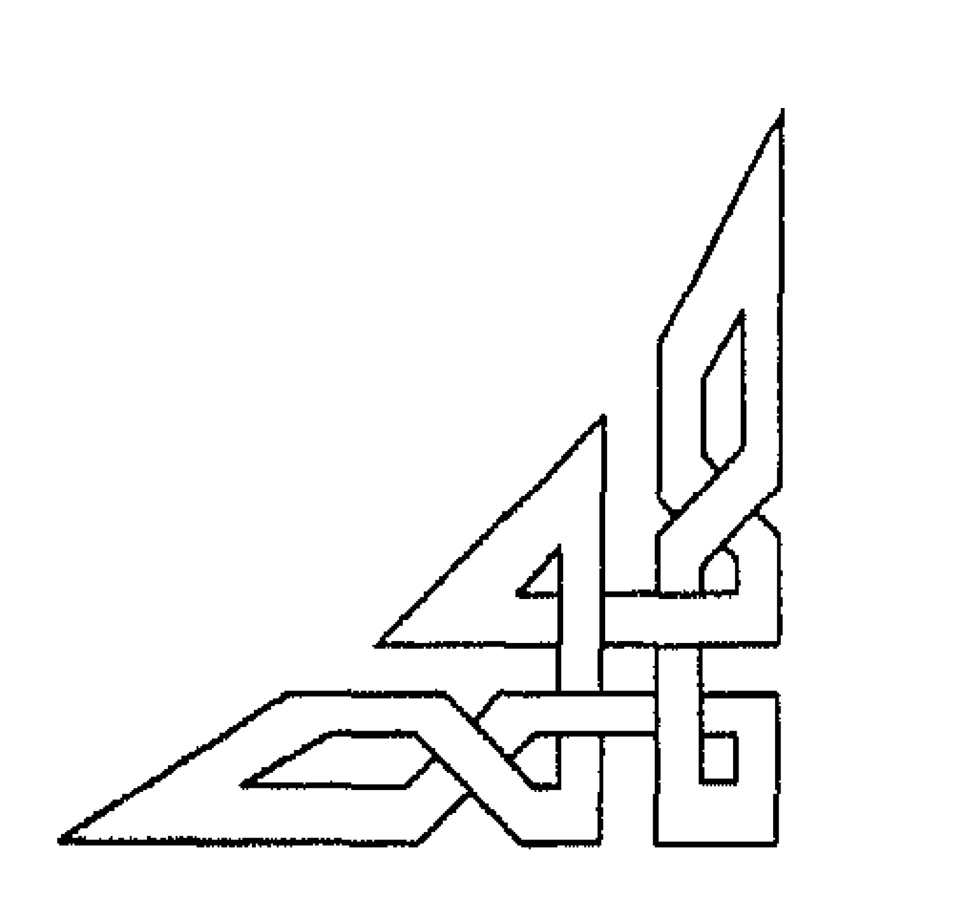
ثم جاءت الخاتمة ، فالمراجع والمصادر ، ثم الفهرس .

* * *

المصادر والمراجع

والفهرس

المصادر والمراجع .

- أحمد أمين : حي بن يقظان لابن سينا ، وابن الطفيل والسهروردي
- أحمد الشايب : الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية ط سنة ١٩٣٩ وط سنة ١٩٦٦ نشر النهضة المصرية .
- أحمد نجيب : فن الكتابة للأطفال دار الكاتب العربي للطباعة والنشر سنة ١٩٦٨
- حسين فوزي : حديث السندباد القديم : القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٣
- زكي محمد حسن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى .
- زينب بيره جكلي : محمد سعيد العريان حياته فن المقالة والسيرة عنده .
- زينب بيره جكلي : فن القصة عند محمد سعيد العريان .
- سهير القلماوي : ألف ليلة وليله مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر سنة ١٩٤٣ .
- شوقي ضيف فنون الأدب العربي : الفن القصصي : الرحلات . ط٢ دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٩ .
- صاموئيل إليوت موريسون ترجمة فوزي قبلاوي مراجعة أحمد زكي العرابي : كريستوفر كولمبس المكتشف العظيم : مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر ، بيروت - نيويورك سنة ١٩٥٩ نشر مكتبة الجيار .
- عبد الغني البدوي : كامل الكيلاني الرائد العربي لأدب الأطفال : الدار القومية للطباعة والنشر .
- عبد الفتاح الديدي : الأسس المعنوية للأدب ط١ نشر دار المعرفة بالقاهرة سنة ١٩٦٦
- عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري : عيون الأخبار المجلد الثاني ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر سنة ١٩٦٤
- عز الدين اسماعيل : الأدب وفنونه دراسة ونقد ط١ دار النشر المصرية مطبعة الاعتماد سنة ١٩٥٥
- لاسل آبركرمبي ترجمة محمد عوض محمد : قواعد النقد الأدبي ط٢ لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٤ .
- المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب : جوائز الدولة في الفنون والآداب والعلوم

الاجتماعية سنة ١٩٦٢ .
- محمد سعيد العريان : حياة الرافعي ط٢ سنة ١٩٤٧ .
- محمد سعيد العريان : رحلات سندباد : أربعة أجزاء دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٢
- محمد سعيد العريان : العرب لا خريستوف كولمبس دار المعارف بمصر سنة ١٩٦١ .
- محمد سعيد العريان : مغامرات أرنباد دار المعارف بمصر جـ ١-٢
- محمد سعيد العريان : وأمين دويدار ومحمود زهران مجموعة القصص المدرسية وهي أهل الكهف - أميرة الواحة - الأخ الشرير - البيت الجديد - بنت الأمير - تاجر دمشق - الحظ الجميل - الراية الحمراء - ساقية العفاريت - سكة الجان - سميحة ومديحة - شجرة الشعر - الصياد التائه - الطيور البيضاء . عروس الببغاء - عروس الشاطئ - مخبر الجريدة - معروف بمعروف - معمل الذهب - النهر الذهبي : دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٢ مدمس إكسفورد ط٦ دار المعارف بمصر - المصادفة السعيدة - الزعيم الصغير .
- محمد سعيد العريان ومحمود زهران وأمين دويدار : مجموعات كان يا ما كان وتضم : مدينة العجائب - الصياد والساحر - الصندوق الصغير - جزيرة اللؤلؤ - سلم الساحرة -
- محمد سعيد العريان ومحمود زهران وأمين دويدار : بير زويلة - ومحسن ومحاسن - مكتبة نهضة مصر بالفجالة سنة ١٩٥٠.
- محمد سعيد العريان وآخرون : كتب القراءة الجديدة للمدارس الابتدائية الكتاب الأول للسنة الأولى القسم الأول ، والقراءة الجديدة للمدارس الابتدائية القسم الثاني للسنة الأولى الابتدائية ، والقراءة الجديدة للمدارس الابتدائية الكتاب الثاني للصف الثاني ، والقراءة الجديدة للمدارس الابتدائية الكتاب الثالث للصف الثالث ، كلها عن وزارة التربية والتعليم بمصر سنة ١٩٦٠ ، والقراءة الجديدة للمدارس الابتدائية : الكتاب الرابع للصف الرابع سنة ١٩٥٠ صادر عن وزارة التربية والتعليم بمصر ، والمعلم لتعليم القراءة والكتابة من القراءة الجديدة للمدارس الابتدائية ، وكلها سنة ١٩٥٥ وصادرة عن وزارة التربية والتعليم بمصر
- محمد سعيد العريان وحسن علوان:
- التربية الدينية للصف الرابع وزارة التربية والتعليم بمصر سنة ١٩٦٠ .
- التربية الدينية للصف الخامس وزارة التربية والتعليم بمصر سنة ١٩٦٠ .

- التربية الدينية للصف السادس وزارة التربية والتعليم بمصر سنة ١٩٦٠ .
- العريان وآخرون مجلة سندباد الصادرة بين عامي ١٩٥٢-١٩٥٩
- محمد يوسف نجم : فن القصة نشر دار الثقافة ببيروت ط٥ سنة ١٩٦٦
- محمود حامد شوكت : الفن القصصي في الأدب المصري الحديث دار الفكر العربي - طبعة الاعتماد بالقاهرة سنة ١٩٥٦ .
- مصطفى عبد اللطيف السحرتي : الفن الأدبي طبع ونشر مكتبة الأنجلو مصرية .
- وزارة التربية في الجمهورية العربية السورية : مغامرات السندباد البحري المطبعة الهاشمية عام ١٩٦٧-١٩٦٨ .
- يحيى حقي : في النقد مكتبة دار العروبة مطبعة المدني بالقاهرة

* * *

الدوريات والمقابلات الشخصية

- مجلة الثقافة في مصر .
- مجلة الرائد في مصر .
- مجلة الرسالة في مصر .
- مجلة السندباد في مصر .
- مجلة صحيفة دار العلوم في مصر .
- مجلة العربي في مصر .
- جريدة الأهرام في مصر .
- جريدة الثورة في سوريا .
- مقابلة مع زوجته .
- مقابلة مع ابنه .
- مقابلة مع زميله : أمين دويدار .

* * *

الفهرس

* * *

تم بعون الله تعديل رسالة الماجستير في ثلاثة كتب هي أجزاء لها .

في الثلاثاء ٩ جمادي الأول سنة ١٤٠٣ - ٢٢ شباط سنة ١٩٨٣

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المؤلفة .


طبعت بمطابع
الفاروق الحديثة للطباعة والنشر
ت : ٤٣٠٧٥٢٦ - ٢٠٥٥٦٨٨
القاهـرة

